ألعاب الوحدة

أحمد غريب

رواية: ألعاب الوحدة
المؤلف: أحمد غريب

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 1596 / 2020
الترقيم الدولي: 978/977-6793-07-1
الطبعة الأولى: 2020
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

ألعاب الوحدة

(رواية)

أحمد غريب

ألقيت نظرة على دولاب ملابسي، أخذت بعض الملابس وصففتها داخل حقيبة سفر صغيرة، فأنا مسافر محترف؛ أعرف ما أحتاجه بالضبط، وهذه الرحلة –كما أحب أن أطلق عليها– لا تختلف عن أي رحلة أخرى سوى أني لن أقيم في فندق بل في مستشفى، لكنه مستشفى فندقي معزول، حيث يمكنك أن تقضي ما قد يكون أيامك الأخيرة في راحة.

إن هذا المستشفى بمثابة غرفة انتظار مريحة للصعود إلى السماء! حسنا، لن أحتاج ملابس للخروج سوى ما أرتديه، ولن أحتاج أطقم منزل كثيرة، لن أحتاج ملاءات ولا مناشف، أحتاج أدوات نظافتي الشخصية فقط.

لم يستغرق الأمر سوى دقائق قليلة وأصبحت مستعدا للذهاب في رحلتي.

أغلقت الشنطة والتفتت إلى الشرفة، دلفت إليها على مهل من لا يريد أن يزعج الذكريات، وقفت ووضعت يدي على بطني وإصبع الإبهام بين فتحات قميصي؛ تماما كما فعلت أول مرة كنت فيها في الشرفة قبل أن نشتري هذه الفيلا، يومها قالت حبيبتي بحسرة إنها تريد شراء الفيلا التي أمامنا لأن حديقتها أوسع، ولكنها بالطبع أغلى كثيرا.

قلت لها: «أتعلمين ماذا كان يقول وسطاء العقارات قديما؟» هزت كتفيها بلا مبالاة؛ كأنها تعلم أن محاولتي للتهوين عليها لن تفلح،

فوضعت إصبعي الإبهام بين فتحات قميصي كأني أرتدي جلبابا، وفردت أصابعي، ونفخت بطني وأرخيت عمامة وهمية على حاجبي، ثم قلت بصوت أجش: «حضرتك يا مذماذيل تحبي تسكني في أول صف في إمبابة، ولا أول صف في الزمالك؟»

قالت: «أول صف في الزمالك طبعا».

«غلط، غلط يا مذماذيل، اسمحيلي يعني، أول صف في الزمالك بيبص على إمبابة، لكن أول صف في إمبابة بيبص على الزمالك، الفيو مهم يا مذمازيل، الفيو!».

ضحكت كثيرا يومها، وعندما هدأت ضحكتها أديت حركة مسرحية كأني ألملم طرف جلبابي، ثم وضعت يدي على رقبتها وضممتها إلي.

وبعد ذلك كثيرا ما كانت تضحك كلما كنا نجلس في الشرفة، وكنت كل مرة أحس بالفخر والسعادة لأني سبب هذه الضحكة، كانت تضحك وهي تشيح بنظرها عني حتى تترك لي مساحة للابتسام، كانت تعرفني وتتعامل مع نو اقصي بكل حكمة.

اشترينا الفيلا ذات الفيو المتميز، كانت الفكرة فكرتها من البداية، عندما أخبرتها قبل زواجنا عن ما أملكه، وضعت هي خطتها المحكمة في ثوان، قالت إن علينا أن نشتري بيتا كبيرا، وطمأنتني بأنه لن يكلف شيئا.

قالت: «ستبيع شقتك التي ورثتها عن أبويك في المدينة، وندفع ثمنها كدفعة مقدمة لفيلا صغيرة في ضاحية جديدة، أما فرش المنزل

فلا أحد سيعلم كيف اشتريناه، لأن الناس عادة ينفقون جزءا من أموالهم على الأثاث، أما نحن فسندفع كل ما نملك كمقدم، وندفع الباقي على دفعات ميسرة، وبهذا يظن الناس أن لدينا أموالا أكثر مما نملك».

لم نجد عناء في ذلك، فقد كانت أنظمة التقسيط مذهلة فعلا، لقد جعلت قرارنا أسهل كثيرا، ثم جعلت حياتنا أصعب كثيرا بعد ذلك، في بداية الزواج كنا نملك فعليا عشر ما نملك، فالبيت والسيارة والأجهزة والأثاث اشتريناهم بالتقسيط ولم ندفع سوى العشر فقط.

وذلك ما جعلنا ننضم بامتياز إلى تلك الطبقة التي يسمونها بالمتوسطة –لأنها طبقة تحيا مثل الأغنياء، وفي نفس الوقت مديونة أكثر من الفقراء– وهي كما يقولون: طبقة لا يستطيع المنتمون إليها أن يتركوا عملهم أبدا، لأنهم لن يستطيعوا العيش بدونه؛ فهم سيسجنون وفاء لديونهم في الصباح التالي مباشرة.

واعتمدنا لضرورة الحال في تسيير حياتنا على ذلك الاختراع المسمى كروت الائتمان، وهو اختراع جهنمي بالفعل، فهو يعتمد على نفس الفكرة التي يعتمدون عليها في صالات القمار، لأن استبدال النقود المحسوسة بملمسها وألوانها ورائحتها بشيء بلاستيكي، سواء كان فيش القمار أو الكروت سيجعل صرفها أسهل كثيرا، فأن تلقي إلى الطاولة فيشة بألف جنيه سيكون حتما أسهل من أن تلقي ألف جنيه أحسستها في يدك.

أضف إلى ذلك الأوهام التي تصحب الاثنين، ففي فيش القمار يكون الوهم هو الحظ، أما في الكروت فالوهم يكون مهلة السداد،

وتبني ثقتك في الصرف على ثقتك في السداد والتي تتحول في موعد السداد إلى خيبة أمل محتومة، لا دليل أوضح على ذلك من ماكينات السحب نفسها، فعندما تسحب مبلغا من المال تعطيك الماكينة الكارت أولا، لأنك بمجرد أن ترى المال ستنسى كل شيء.

نزلت الدرج في عجلة كما أفعل كل يوم أثناء ذهابي للعمل، أغلقت زر الكهرباء العمومي كما أفعل في كل رحلة، وأغلقت محبس المياه العمومي، فالكهرباء والماء مثل الأطفال لا يجب أن تتركهم وحدهم في المنزل.

خروجي هذه المرة لم يختلف عن أي يوم آخر سوى أني وقفت ثوان قبل أن أفتح الباب ثم التفت إلى المنزل معطيا ظهري للباب لألقي نظرة أخيرة.

تذكرت يوم شرائنا للمنزل أنا وزوجتي، أول مرة دخلنا فيها المنزل توقفنا في هذا المكان الذي أقف فيه الآن، وقفنا ساعتها ننظر ونحن نحضن أصابع بعضنا ونتخيل ما سيكون شكل ديكور المنزل.

تذكرت يوم الزفاف، وقفنا هنا في نفس المكان بعد أن قطعنا خطوتين في عالمنا الجديد، وقفنا وجها لوجه، كانت ترفع عينيها إلي من تحت الشال الأبيض الذي حجبهما، رفعته برقة ونظرت إلى عينيها ورأيت صورتي فيهما كما تراني هي، كنت أبدو ساحرا في مقلتيها وسواد عينيها يرسم إطارا لامعا حول وجهي، ورموشها ترسم صورة حصن منيع حولي، كنت أستمتع بعد هذا اليوم بالنظر إلى نفسي في عينيها حتى أصبحت عيناها معيار ذاتي ووجودي، المرآة التي أرى نفسي من خلالها، أنظر فيها فأرى نفسي في أبهى صورة.

جاهدت كثيرا لأبقي هذا اللمعان حول صورتي في عينيها، كان البرواز أهم من صورتي، وكان بريق عينيها ما يمنح صورتي بهاءها.

لم تنتظر هي أن أفعل شيئا بعد ذلك، قفزت برشاقة وتعلقت برقبتي، قبلتني أول قبلة، كانت تقبلني كزوجها وتتعلق في رقبتي كأني أبوها، منحتني إحساسي الحب والمسؤولية معا في قبلة واحدة، ساعتها تولد ارتباط خفي بيني وبين المكان. هذه القبلة هي التي منحتني البيت، إحساس البيت، قلت لنفسي: «هذا البيت سأحبه، هذا البيت سأكون مسؤولا عنه».

أما هي فقد سبقتني بتعلقها وقبلتها لتفرض علي التزامي نحوها، وكان هذا أكثر ما أحببته فيها، فالحقيقة أننا كنا شخصين مختلفين تماما، وكنا نعلم أننا قطبان، كل منا يقف على أقصى حافة من طباع البشر، لكن منذ اللحظة الأولى عرفنا أننا خلقنا لنكمل بعضنا.

أحيانا تعجزنا اختبارات الحياة فنلتمس الكمال في صورة شخص آخر، وقد كنا بالفعل مكملين لبعضنا، كنت أفكر لي ولها، وكانت تتدلل وتستمتع لكلينا، وتجبرني على التدلل والتمتع معها.

ابتسمت، فحبيبتي بعد الفراق قادرة على الحضور، لم تكن تحضر في عقلي كخاطر فقط، كان الخاطر كفيلا بأن يحضرها كلية، يحضر عطرها، ضحكتها، خفتها، أنوثتها، كانت تحضر بمجرد ذكرها كطيف ساحر في أي وقت وفي أي مكان.

نظرت إلى باقي المنزل، كان مرتبا كالعادة فأنا أعيش وحدي، و أنا تقريبا لا أستخدم من هذا المنزل الشاسع المكون من طابقين سوى

كرسي واحد وجانب السرير الذي أنام عليه، بل أن بعض الأثاث لم يستخدم أصلا منذ اشتريناه، والأصح منذ اشترته حبيبتي.

فكالعادة كان رأيي كسائر الرجال استشاريا في كل أمور الأثاث والمنزل، وإن لم يخل كالمعتاد من تململ زوجتي من عدم اهتمامي، وكعادة كل الرجال كان هذا يريحني، وكعادة كل النساء كان ذلك يعطيهن إحساسا محببا لهن–وإن تظاهرن بغير ذلك– بالمسؤولية التي تقع على عاتقهن.

وكانت بالفعل حياتنا رائعة إلى أن رحلت زوجتي عني بعد زواجنا بسنوات قليلة.

احتفظت بالبيت في البداية لأنه كان يحمل لي ذكريات جميلة، ثم تغير سبب احتفاظي به بعد ذلك عندما اكتشفت أن هذا البيت الذي كان في ضاحية راقية جديدة، وأصبح الآن في ضاحية راقية مأهولة بالسكان يجذب إلي الأنظار أكثر من أي شيء آخر، فالرجال العزاب الوسيمون المهندمون كثيرون في هذه الضاحية، ولم يكن يميزني عنهم سوى المنزل بموقعه ومحتوياته الراقية الذوق، أحيانا كنت أحس أن كلهم كانوا يحلمون بالسكن في ذلك البيت الجميل ذي الإطلالة الساحرة، الذي يقع على الربوة الهادئة، معي.

إن موقع البيت وحديقته التي أكاد لا أستخدمها سوى كمنظر جمالي يلوح خلف التلفاز في غرفة الجلوس وبجانبي على مائدة الطعام كانا حلما لكل امرأة عرفتها، حتى أن كثيرا منهن أبدين عدم رغبتهن في تغيير أي شيء في المنزل سوى غرفة النوم.

لا أعتقد أن زوجتي فكرت للحظة أن هذا المنزل الرائع الذي اختارته وأثثته على ذوقها سيكون جاذبا لسيدات أخريات لزوجها عندما ترحل، تماما كما لم يفكر الرجال الذين يكنزون المال أنه سيكون عنصرا يجذب الرجال إلى أراملهم، أليس غريبا؟ كيف يمكن أن تتحول أحلامنا التي طاردناها إلى لعنات تطاردنا، لأننا أحيانا لا نحترم رغبة بعضها في الابتعاد عنا؟

وكان أحد عوامل الجذب المهمة أن ابني كان يقيم عند جده وجدته لأمه كل الوقت تقريبا، فهي كانت ابنتهما الوحيدة وكان تربية حفيدهما منها أفضل تعزية لهما عن فقدانها، لا يعني هذا أني تركت المسؤولية كاملة لهما، لقد تبادلنا الأدوار فقط ففي العادة يتولى الأب والأم مهام التربية والتأديب ويتولى الجد والجدة التدليل فقط، فأصبحت أنا الأب الروحي لابني وملهمه، وأسعدني طبعا أن أتولى مهمة التدليل فقط.

التفتت وخرجت من باب المنزل وألقيت تحية مقتضبة على جاري الجديد عديم الذوق وكلبه المزعج، إن أمثال هذا الجار المزعج انتشروا كثيرا في الضواحي الجديدة في مصر...

أولئك الناس حديثي الغنى الذين يقتنون كلابا ويتركونها تتجول بدون رقابة وتتحرش بالناس بدون أن يمارسوا عليها أي سيطرة، ويتركونها تلوث الحدائق والشوارع، ويفترضون أنك بطريقة ما يجب أن تتعود على النوم على صوت نباح الكلاب كما كان السلطان مارينجوس الأول (طويل العمر يطول عمره ويزهزه عصره وينصره على من يعاديه، هاي هئ) معتادا على النوم على صوت الغسالة، وإذا

عنفت أحدهم ينظر إليك كأنك قادم من كوكب آخروأن حقه أن يروع الناس بكلبه ويلوث الشوارع والحدائق.

في أيام الملكية كان الشخص يصبح إقطاعيا عند امتلاكه لمئات الأفدنة، اليوم كل من يملك بيتا من غرفتين وصالة ملحق به حديقة لا تتجاوز العشرين مترا يظن نفسه إقطاعيا، ويربي كلابا شرسة لكي يحرس أملاكه الشاسعة.

ركبت سيارتي، أدرت المحرك، وبقيت أنتظر سريان الزيت في أوصاله، بدأت ألتفت إلى الشارع والطقس، فقد خرجت من المنزل بسرعة شديدة كما أخرج إلى عملي كل يوم، لم أشأ أن أعطي أي أهمية لهذا اليوم، ظللت أكرر لنفسي أنه يوم عادي، لكن بدلا من الذهاب إلى العمل أو في رحلة سأذهب إلى المستشفى، قد يكون يوما مثل هذا يوما مختلفا لكثير من الناس، لكني كففت عن إعطاء أي شيء ليس مني أي أهمية.

اكتشفت أن تقسيم الحياة إلى وحدات صغيرة يجعلها تمر أسرع بالنسبة لي، كانت الأيام ساعات أقضيها، والساعات دقائق أضيعها، والدقائق مجرد ثوان تمر، والثواني أصبحت مقدار حركة جسم معدني لم أجد مبررا لأن يسموه عقربا.

كان القاسم المشترك الآن أنها تمر بدون أن أعطي أهمية لأحد أو لشيء أو لمكان، عموما؛ كنت قد نجحت نفسيا على الأقل في أن أجعل حياتي بعد زوجتي تبدو كعرض عابر، وحتى الآن نجحت في جعل اليوم يبدو كصباح عادي في كل شيء.

في طريقي فتحت النافذة، لكن لم يصلني سوى عوادم السيارات وسخونة الإسفلت، صحيح أن الطريق محاط بالأشجار لكنها مثل حديقة منزلي مجرد منظر جمالي لا أكثر، ولم تختلف قيادتي اليوم عن أي يوم آخر، لم أكن أنظر يمينا أو يسارا بل دائما إلى الأمام.

كانت تضجرني النظرات عديمة المغزى التي يتبادلها سائقو السيارات لمجرد أنهم مروا بجانب بعض، بل أن بعض السائقين أحس أن رقابهم معلقة على بندول يتأرجح يمينا ويسارا ولا ينظر إلى الأمام أبدا، وكالعادة عند التقاطع أخذ سائق المطب بسرعة شديدة ليسبقني، أردت أن أوقفه لأسأله ذلك السؤال الذي يلح علي دائما، هل تكرهني لهذه الدرجة؟ هل أن تسبقني أهم عندك من تدمير أدوات التعليق في سيارتك؟

كنت مصابا بما يسمى غضب الطريق، أنفعل و أتشاجر وأسب وألعن كل السائقين الأغبياء، كان ذلك يضايق فراشتي، حتى وجدت حلا عبقريا لذلك، ففي أحد الأيام كانت السيدة التي تساعدها في أعمال المنزل و اقفة معها في الشرفة ورأت جارا لنا يفعل أشياء غريبة بسيارته، فقالت لها: عارفة يا مدام اللي زي ده في البلد عندنا بيقولوا عليه إيه؟ بيقولوا باع التور واشترى بتمنه موتور.

عندما حكت لي زوجتي ذلك التشبيه انفجرت ضحكا، وهكذا كلما رأت غبيا يقود بجوارنا تسبق غضبي بأن تقول نصف المثل: باع التور، لأرد و أنا أبتسم: واشترى موتور، ثم تطورت هذه اللزمة لتصبح تور موتور، وأصبحنا نطلقها على محدثي النعمة المتباهين الأغبياء في كل نواحي الحياة...

مثل أولئك الأم التي تحدث ابنها بالإنجليزية أو تحشرها حشرا في وسط كل كلماتها، وتلك التي تصرخ في طفلها الصغير في السوبر ماركت بالإنجليزية وهي لا تعي هل إنجليزية ما قالته أو عربية، حتى محدثي الثقافة الذين اكتشفوا كلمة جديدة في القاموس ويتحفوننا بها كل ثانية.

التفتت مرة أخرى إلى الطريق، أصبح هناك حروب تشتعل في مضمار القيادة كل لحظة، كل انحراف بعجلة القيادة خارج الحارة التي تشغلها إعلان أنك أهم من أن تنتظر أن تتحرك حارتك، يكون الرد عليه دائما بتحرك أمامي سريع دفاعا من شخص آخر عن حارته وفي الحقيقة هو دفاع عن ذاته، هو أيضا يرى نفسه أهم، ويرى نفسه شخصا لا يقبل التنازل عن حقه.

صراعات أخرى ناتجة عن السرعة والإبطاء، فأصبحت أحس أن كرامة السائقين هي ما يمنعهم من الإبطاء، فكثير من السائقين يعتقد أن كرامتهم تقع بين أقدامهم ودواسة الفرامل، لقد أصبحت شوارعنا المزدحمة نموذجا مصغرا من صراع البقاء.

كنت سأسلك نفس الطريق الذي أسلكه إلى عملي، ثم أكمل على الطريق السريع، ورغم كل محاولاتي كل شيء بدا مختلفا اليوم، رأيت تفاصيل ولافتات وأشجارا لم أرها من قبل رغم أني سلكت هذا الطريق آلاف المرات منذ عملت في هذه الشركة بعد عودتي من رحلة التدمير الذاتي.

بدأت التركيز في الطريق كأني أراه أول مرة، فغالبا ما لم تدركه في أي طريق من أول مرة لن تدركه أبدا، ستظل تراه لكن عقلك قد

جنبه أو تجاهله لعدم جدواه وأهميته، كما تتجاهل عينك أرنبة أنفك دائما، أو لأنك كما في حالتي هذه تتعامل مع الأمر كله بمنطق الواجب الذي لا بد من قضائه.

لم أكن أصحو من النوم لأذهب للعمل وحسب، بل لأستطيع شراء ما أحب وأسدد فواتيري، وعندما أصبح لدي مدخرات تكفيني أصبحت أذهب للعمل لأني أريد أن أنشغل به، وبمرور الوقت أصبح مشوار العمل مجرد فعل لا إرادي كالتنفس؛ تفعله ولكن لا تدركه في معظم الأحيان، لكن اليوم كان مختلفا، كثير من الاختلافات البسيطة كما أحب تسميتها حتى لا أعترف لنفسي بأن شيئا في نفسي قد تغير.

أتى الطريق السريع بطيئا هذه المرة، ضغطت زر تشغيل كاسيت السيارة بمجرد وصولي لبداية الطريق السريع، كنت قد أعددت مجموعة أغان قديمة لأسمعها طوال الطريق، وكانت هذه عادتي لأمنع نفسي من التفكير، فعادة ما ينتهز عقلي فرصة الطرق الطويلة ليفسح لنفسه مجالا للتفكير، الفكرة الوحيدة التي تركتها تملأ رأسي كانت عدم القلق، فلو كانت هذه آخر أيامي فأنا راض بما عشته.

لم أدع كلمة (لو) تطاردني، لقد عشت حياتي كما أحببتها والحقيقة أن لذلك قصة طريفة، فمن علمني أن أستمتع بحياتي كان سارقا، سارق هويات، كان كذلك فعلا، فعندما كنت في زيارة لأحد أقربائي بأمريكا عرفت أنه تعرض لحادث سرقة هوية من شهور وأن الشرطة أبلغته أنهم قبضوا أخيرا على السارق ويريدونه في القسم لإنهاء بعض الإجراءات، عرفت وقتها أن سارق الهوية هذا شخص يصدر نسخا من كل أوراقك الثبوتية، ودفتر شيكاتك وشهاداتك

الدراسية وحتى اسمك، بمعنى أصح يسرق هويتك كاملة، يصبح أنت ويتعامل مع العالم من هذا المنطلق.

ذهبت مع قريبي لقسم الشرطة وأطلعنا المفتش على تقرير بالاستجواب وبكل ما فعله هذا السارق منذ انتحاله لصفة قريبي، عندما نزلنا من القسم والتفتت لقريبي الذي بدا حزينا جدا أسأله عن حاله وأعزيه بأن الرجل لم يسحب كثيرا من أرصدته أخبرني أن هذا ليس سبب حزنه، وقال بمرارة شديدة أن ما يضايقه أن هذا السارق عاش حياة أفضل منه مستخدما إمكانياته، وقد كانت هذه نقطة تحول كبيرة في حياة قريبي هذا، فقد أحس بالذنب في حق نفسه.

وكانت نقطة تحول في حياتي بالتبعية، فأنا لن أقبل بهذا الشعور المرير بالدونية أمام نفسي، و أني تركت ما أستحق يضيع مني، فقد اكتشفت عندما طالعت تقرير الشرطة وقارنت حياة هذا السارق في الشهور التي انتحل فيها صفة قريبي وحياة قريبي في هذه الفترة أن هذا السارق فعلا عاش أفضل كثيرا، بل أنه بشهادات قريبي الدراسية حصل على عمل أفضل وبمرتب أعلى، بل وذهب إلى منتجعات ر اقية و ابتاع سيارة فارهة واشترى ملابس فاخرة.

كانت الحكمة الوحيدة التي استخلصتها هنا هي أن الخوف على المدخرات والخوف من المجازفة هو ما منع قريبي من التمتع، وبنظرة متأنية فإن البشر يتركون كل أنواع الخوف تتحكم في حياتهم، في حين أن الخوف الوحيد الذي يجب أن تتركه يتحكم في حياتك هو الخوف من أن تعبر أيام الحياة بلا حياة تستحقها.

جاكت حبنا

– جيد أنك تتذكرني!

– صدقيني، لم يكن هناك اختيار آخر!

كان هذا ثاني لقاءاتنا، اللقاء الأول كنا غريبين اجتمعا في حانوت لبيع الدراجات النارية، كانت كل علاقتي بهذه الدراجات حتى هذه اللحظة هي جاكت من الجلد اشتريته في إحدى مواسم العروض في أوتليت في أمريكا، أعجبني شكله، وأعجبني الخصم الكبير أيضا، جربته مرارا وتكرارا في المنزل حتى أقنع نفسي بارتدائه خارج المنزل، استلزم ذلك وقتا جربت فيه الجاكت كثيرا أمام المرآة، عرفت أثناء هذه الفترة أن هذا جاكت مخصص لركوب الدراجات النارية.

عادة أبتاع أشياء تبدو غريبة في أسفاري إلى أمريكا وأوروبا، ثم آخذ وقتا لأقنع نفسي بها، أقول دائما لنفسي إنني لست هنا لأشتري ما رأيت الناس يرتدونه في مصر، بل أنا هنا لأسبقهم بصيحتين على الأقل، هكذا أكون مميزا.

شاهدت الكثير من أفلام البايكرز فور اقتناعي أني أحدهم بما أني ألبس مثلهم، لكن لسوء حظي، لم أكتشف موضوع الدراجات النارية هذا وأنا في أمريكا، اكتشفته هنا، ثم تبين أن سوء الحظ نعمة أحيانا.

بحثت عن مكان لبيع الدراجات النارية هنا، ذهبت بدون الجاكت أولا، خشيت أن يعتبرني أحدهم مجنونا، ولم أكن على يقين من أني سأمشي الطريق لآخره، وهناك رأيتها...

فراشة ترتدي رياضتين في وقت واحد: ترتدي حذاء فروسية؛ شاع كصيحة لأحذية الفتيات في ذلك الوقت، وجينز ملتصق؛ أحسب أنه ترك تفصيلته الأساسية والتصق بها أملا في التباس ذلك الإبداع الإلهي، ومن الأعلى كان شعرها ينسدل على الجاكت الجلد الذي ترتديه، ويغطي على علامة كبيرة مرسومة على ظهر الجاكت، كانت تتحدث مع أحد العاملين، ولم تثبت ثانية، كانت كمن تحارب الجاذبية لكي تطير.

رأيت العامل يذهب، ورأيتها وحيدة تتحسس الدراجة التي أمامها وكأنها تداعب حيوانا أليفا، ثم التفتت لي، لسبب ما لم أشح ببصري بسرعة، سرعة الجنتلمان، الذي يتفحص المرأة ثم يشيح ببصره عندما تنظر إليه، فرق كبير بين أن أنظر بدون أن تشعر وأن أنظر وهي تعلم، هذا هو الفرق بين الرجل المهذب والرجل العادي، كلانا يفعل الشيء نفسه، لكن أحدنا يخفيه.

اقتربت كشمس تسطع، شعرها يجري على جنبات وجهها ويلتزم بمجراه خلف أذنيها ليعطي لوجهها كل مساحة الإشراق، وجبهة تتسع كسماء صافية، وعينان غائرتان بأسرارهما، وأنف يبدو متناقضا يبدأ كأخدود بين حاجبيها، ثم ينزلق بك لأعلى ليلقمك شفتيها الرفيعتين المرسومتين بعناية، ثم ذقن مدببة تلقف عينيك؛ فتمنعك من الانزلاق عن وجهها.

تشبثت بجبهتها حتى لا يذوب ترابطي في دوامات الفتن، ابتسمت وأومأت برأسها: «هل أساعدك في شيء».

«شكرا جزيلا، أنا ألقي نظرة فقط، ما زلت جديدا على هذا العالم».

كنت أتحدث بثبات لم أعهده خصوصا في الأحاديث الأولى، عادة أنا شخص ذو رأس مزدحم، تحدثني عن السيارات؛ فأعلق على كلامك بمثل شعبي عن زواج الأقارب، تسألني عن أحوالي؛ فأرد عليك بجملة فلسفية، وكأن ذلك الصراع الذي يدور بداخل عقلي يبحث عن مخرج فيندفع كلما فتحت فمي.

بطرف عيني لمحت جسدي منتصبا بوقفة عسكرية شديدة، مستنفرا كل عضلات جسدي لتبدو في أبهى صورة.

انجوى، قالتها ببساطة وبحركة بدت كبالبرينا نظرت في الاتجاه الآخر قبل أن أقول لها شكرا.

استمتع، أنا لا أعرف كيف أستمتع.

...

وصلت أخيرا.

إن المستشفى بعيد بالفعل، لقد استغرقني الوصول إليه عدة ساعات، ووقتا أكثر مما كنت أتخيل، كنت أعلم ذلك مسبقا –فقد أجريت بحثا عنها عندما رشحها لي طبيبي المعالج– لكن لسبب ما أحسست أن الطريق أطول مما حسبت حسابه.

أذكر ساعتها تطوع الطبيب بالتنسيق مع المستشفى في كل شيء، حتى أني لم أحتج إلا للحضور قبل العملية بأيام قليلة للخضوع لبعض الفحوصات والتجهيز للجراحة، الآن أعتقد أنه فعل كل ذلك لأني لم أكن لأقطع هذه المسافة مرات عديدة، كنت بالتأكيد سأمل، أنا أعلم أن هذا لم يكن مجانا، فحتما له تعامل أو نسبة مع هذا المستشفى، إن تنسيقات الأطباء والمستشفيات وشركات الأدوية أصبحت أمرا منتشرا ومريبا جدا.

من على باب المستشفى الرئيسي كان المبنى يلوح من بعيد حتى أني لم أتبين ملامحه، قدت السيارة في ممر طويل من الرمل الممهد تحيطه الأشجار والحدائق من كل جانب، هنا أحسست بالطبيعة حاضرة بذاتها لا مجرد إطار جمالي، ركنت سيارتي وألقيت نظرة على المبنى من الخارج وعلى الحدائق المحيطة به، ثم توجهت للمدخل وقصدت مكتب الدخول.

رحبوا بي وأخبروني أنه علي الانتظار قليلا في الاستراحة، جلست و أتت عاملة البوفيه لتسألني إن كنت أريد أن أشرب شيئا، شكرتها، كانت عاملة بسيطة لكن في وجهها ابتسامة تحمل بشاشة الدنيا، و أقول ذلك لأني نظرت إلى وجهها وهذه عادتي فأنا أنظر دائما للعمال البسطاء عندما يقدمون لي خدمة، إن من لا ينظرون إلى البسطاء يفوتون على أنفسهم رؤية الحياة في أبسط صورها، فعيون البسطاء بعد تلقيهم الشكر تعطيك إيحاءات تنعش النفس.

اصطحبني ممرض إلى غرفتي، اندهش من قلة أمتعتي وعدم وجود مر افق لي، فلم يكن معي سوى حقيبة واحدة صغيرة أصررت على حملها بنفسي، لأني أكره مظاهر الضعف.

أما بالنسبة للحقيبة، فالحقيقة أن هذه كانت عادتي أثناء السفر، فقد فهمت منذ زمن طويل أن أمتعة السفر الكثيرة ليست دليلا على الثراء، بل دليلا على الفقر، فالغني يستطيع أن يشتري ما يريد من أي مكان دون أن يشغل نفسه بالبحث عن أقل الأسعار، أو يستطيع أن يشتري من على الإنترنت وتشحن الملابس إلى منزله، أما الفقير فهو الذي يلهث وراء شراء ملابس من ماركات غالية ليحمل بكل فخر علامتها على ملابسه.

الحقيقة أيضا أني كنت قد أقلعت عن لبس الملابس التي تحمل علامة مميزة، وفكرت جديا أن أنشئ حملة على الفيس بوك بعنوان (كفوا عن وضع ماركاتكم على جسدي)، هذه الفكرة طرأت ببالي عندما رأيت صديقا لي يرتدي قميصا عليه علامة لماركة مبالغ جدا في حجمها، خطر ببالي وقتها أن هؤلاء المصنعين استغلوا أجسادنا

ليجعلوا منها لوحة إعلانات لعلاماتهم التجارية، وبدلا من أن يدفعوا لنا أجرا مقابل ذلك، تقاضوا هم منا مبالغ خر افية.

وصلت إلى الغرفة، إنها تطل على حديقة يتوسطها ممر تتفرع منه ممرات صغيرة كورقة شجر، وعلى طرف الحديقة بعض الأشجار بمحاذاة سور المستشفى، ومن ورائهم مشهد ممتد يكتسي باللون الأخضر، أخبرني الممرض بألفة يظن أنها ستدرعليه دخلا أنه سيكون هنا في مكتب الدخول اليوم وغدا فأطقم التمريض والأطباء الصغار هنا ولبعد المسافة يقيمون نصف الأسبوع كمعسكرات الجيش.

لم أدر ماذا يقصد بمعسكرات الجيش التي قالها ضاحكا، فالجنود في المعسكرات تقضي أسابيع طويلة وليس نصف الأسبوع فقط، ربما كان يقصد أن روح المعسكرات تسيطر هنا، فأن تأتي لعملك كل يوم وتعود إلى بيتك يمنحك حياتين لا تستغرق في حياة العمل منهم كثيرا، أما أن تقضي أياما في عملك فهذا يجعل عملك حياة أخرى، ومن المسلم أنه لا حياة لمجتمع بشري بدون مشادات وترصدات بين أفراده وثرثرة ونميمة طبعا.

أخذ الممرض يشرح لي محتويات الغرفة البسيطة: «هنا على يسارك أثناء الدخول حمام وأمامه دولاب مبني داخل الحائط وسطحه الخارجي عبارة عن مرآة، وهنا السريروبجانبه كمود، وأمامه مبرد صغير، ويعلوه تلفاز، وكرسيان ومنضدة قرب النافذة...» أعتقد أنه لم يكن بحاجة لذلك لأني رأيت كل محتويات الغرفة بعد خطوتين من دخولي إليها، فأعطيته نقودا بسرعة قبل أن يشرح لي طريقة استخدام الثلاجة.

خرج الممرض ودخلت إلى الحمام لأغسل عني تراب السفر، رتبت ملابسي في الدولاب، وأخرجت كراسا وقلما ووضعتهما على الكمود بجانبي...

كنت قد قررت أن أكتب كل أفكاري على ورق، لنفسي أو لمن سأكونه بعد هذه الجراحة، فهذه كانت عادتي أيام المرهقة، عندما عرفت أن اشتراك أكثر من حاسة في فعل شيء يجعلني أتذكره أكثر، وحتى الآن لا أعلم إذا كانت هذه حقيقة أو لا.

استمريت على هذه العادة لأني كنت أبدو كمن يذاكر دروسه، وهذا كان يفرح والدي ووالدتي، وكنت قد قرأت مقولة تقول إن كل إنسان يستطيع أن يكتب قصة واحدة على الأقل، قصة حياته، فكنت أستمتع بكتابتها على صورة عمل أدبي رغم أني أعلم أنه لن يقرأها أحد غيري وأعترف أنني افتقدت هذه العادة مع مشاغل الحياة، كنت أمارسها لكن بدون كتابة، حتى مذكرات المراهقة لا أعلم مكانها، بحثت عنها مرارا في الفترة الأخيرة منذ أن علمت حقيقة مرضي ولم أجدها.

أردت أن أعيد الكرة مرة أخرى، الفرق أنني في المرة الأولى، كتبت حياتي بتأن و انتقاء يتناسب مع مثالية المراهقة، كتبت لأرسم دستورا لحياتي...

أما هذه المرة فأنا أريد أن يكشف لي الورق ما لم ألاحظه بنفسي، أريد أن أكتب بعفوية وبلا أي تدخل مني، ربما أرشدتني الكلمات لحزن دفين أو إخفاق متوار أو سعادة لم أعطها حقها من الفرحة.

ضحكت لأن ذلك ذكرني بأحد الرؤساء الذي اعتاد على عقد لقاء تليفزيوني كل عام في عيد ميلاده، كانت النكتة المتداولة أيامها، يا ترى قصة حياة الريس هتكون إيه السنة دي؟

أمسكت الكراسة وبدأت الكتابة.

سأخاطبك دائما بعزيزي أنت، وهذا اختلاف كبير عما خوطبنا به أنا و أنت في مذكرات المراهقة، لقد كانت كل المذكرات تبدأ بكلمة صديقي أنا، أما الآن، وبعد كل ما رأيته ومررت به أعلم أننا لسنا نفس الشخص أبدا، فأنا لست من كنته عندما كتبت مذكرات المراهقة عكس ما كنت أتخيل و أنا بسذاجتها أضع دستورا وقواعد وأرسم طريقا لحياتي كلها...

و أنت حتما لن تشبهني تماما، فإن حدثا مثل الذي نحن مقبلان عليه يا عزيزي يغير كثيرا في النفس والعقل، إنها مرحلة جديدة في كهف جديد، لذلك سأخاطبك كشخص مختلف عني كليا، شخص لا تعلم عنه شيئا، و أنا هنا لا أحاول أن أقودك يا عزيزي، بل أحاول أن أبرر نفسي بالنسبة لك، لكي تفهم دو افع أفعالي وتفهم طريقة تفكيري، عسى أن يكون ذلك معينا لك، لذلك فقد عزمت على أن أحكي لك عن نفسي أولا، ثم أراجع أمامك حياتي، وقد أردت أن تكون هذه المراجعات وما تليها من مراحل بمثابة مذكرات جديدة لي تعوض مذكرات المراهقة التي فقدناها لتذكر نفسك التي كانت، فأنا يا عزيزي جزء منك لا تستطيع محوه، ولكن تستطيع تغييره، أما أنت، فأنت جزء مني لا أعلم عنه شيئا.

...

عزيزي أنت.

لقد كانت عادتنا دائما أن نعتبر مثل هذه الأحداث الكبيرة التي تغيرنا نقطة للمراجعة، نبدأ بعدها من أول السطر إن عدنا إلى الحياة...

وكنا نسمي نقطة المراجعة هذه دائما (لحظة التفات) كتلك اللحظة التي تخيلها سقراط ورواها عنه أفلاطون في محاورة الجمهورية، عندما تخيل أشخاصا ولدوا وعاشوا مقيدين بأغلال في كهف مجبرين أن ينظروا إلى الحائط أمامهم، ولم ينظروا في أي اتجاه آخر أبدا، وتخيل أن هناك ضوءا خلفهم، وهناك أحد يحرك أشكالا أمام هذا الضوء، فتتحرك ظلالها أمامهم على الحائط، وهم يعتقدون أن هذا الحائط الذي أمامهم هو العالم، وأن ما يروه من ظلال هي أشكال الأشياء إلى أن يخرج أحدهم لينظر خارج الكهف فيرى العالم الحقيقي.

وقد كنت دائما أشبه مراحل حياتي بهذا المثل، فتكون كل مرحلة كهفا أرى فيه ظلالا إلى أن تحدث علامة فارقة، يقظة مفاجئة، لحظة التفات أرى فيها العالم على حقيقته، الغريب أنني بعد كل لحظة التفات كنت أرى العالم إجابات فقط بلا أسئلة، أو أسئلة فقط بلا أجوبة.

على كل فقد أردت أن أحاسب نفسي قبل أن أحاسب وتفتح كتب الملكين، أو أعود لأبدأ حياة جديدة خارج هذا الكهف، في كهف آخر بالطبع، إن خطتي لقضاء هذه الأيام بسيطة، علي أولا أن أقوم بالمراجعة، وهي مرحلة أقوم بها دوريا، حيث أراجع مساري في الحياة وأراجع قراراتي، أظن أنك يا عزيزي بت تستوعب الآن أني كنت صادقا عندما قلت أن حياتي شغلتني.

ثم أنصرف بعد ذلك إلى وضع عنوان لمراحل حياتي، وأن أختار لقطة تعبر عن أفضل لحظة في كل مرحلة تحسبا لأن أكون مالكا للحظاتي الأخيرة، أو كنوع من الرقابة المسبقة على المشاهد التي سيختارها عقلي الباطن كذلك النوع من الرقابة التي يفرضها الحكام والمديرون الأذكياء عندما يتيحون لك الاختيار من اختيارات اختاروها هم مسبقا وهي بالنسبة لهم مقبولة، ثم يوحون لك بأنك حر في حين أنك في الحقيقة تتحرك داخل حيز رسموه لك بعناية.

سأفعل ذلك تحسبا فقط، فأنا لا أريد أن أغادر بخيبة أمل، وليس مقبولا لدي أن أقضي كل عمري أحسب حساب خطواتي ثم تزل قدمي في الخطوة الأخيرة. على كل، فهذا أفضل كثيرا من أن أقضي باقي وقتي ضحية للخوف، أو الأسوأ أن أقضي باقي وقتي ضحية للأمل.

لم يقاطعني أحد هذه الليلة سوى الممرضة التي أتت لإجراء الفحص الروتيني لحالتي...

أثناء قياس الضغط اكتشفت أن الممرضة ترتدي سلسلة تخفيها تحت ملابسها، أنا أعلم أن ذلك بالتأكيد مخالف للتعليمات

نظرا لكونهم يتعاملون مع أجهزة كهربائية، لكن لن يستطيع أحد أن يمنع النساء من ارتداء الذهب.

تذكرت قصة الملك الذي رأى أن الثروة التي ينفقها الرجال على شراء الحلي الذهبية لنسائهم أولى أن تنفق على السلاح والعتاد، فقرر منع النساء من ارتداء الذهب، فامتنعت بالطبع كل النساء عن تنفيذ الأمر وضربوا به عرض الحائط، ولم يكن بإمكان الملك معاقبة كل النساء، ولم يكن بإمكانه أيضا أن يقبل ضياع هيبته، فلجأ إلى حيلة ذكية ليحفظ هيبته: أصدر فرمانا يسمح فيه للنساء القبيحات وكبار السن فقط بارتداء الذهب، فخلعت كل النساء الذهب.

حتى هذا المستشفى الفاخر فشل في ما فشل فيه الملك في البداية، إلا أن هذا الملك كان أذكى، لقد فهم أن أفضل طريقة لجعل المرأة تطيعك أن تستخدم مخاوفها ضدها.

أتممت الفحوصات، فنظرت إليها وشكرتها، فاعتذرت بدون مبرر واضح لأنها تحس ببعض الضيق اليوم، وكالعادة كان مطلوبا مني أن أسأل لماذا، لكني لم أفعل. إن الناس يخبرونك دائما أنهم بخير إلا إذا أرادوا أن يستدرجوك لحوار تبدو فيه أنت من سألت، لا أنهم ألمحوا بذلك ليلفتوا انتباهك.

عموما يا عزيزي لا تقع أبدا في هذا الفخ مع امرأة لأن هذا الحوار سينتهي غالبا بأن تلومك أنت على تذكيرك لها بما يضايقها.

إن الخروج من القوقعة التي نعيش بداخلها إلى عالم شخص آخر شيء خطير. هذا الحادث أكد لي فقط ما شعرت به في الصباح،

أن لهذا المستشفى طابعا مختلفا عما توقعت، أمضيت باقي ليلتي أقلب بين قنوات التلفاز، كانت القنوات التي اختاروا عرضها قليلة، مما أصابني بالملل، إلا أنني كنت أمل أيضا عندما أقلب بين مئات القنوات، إن الإنسان يمل من كثرة الخيارات كما يمل أيضا من قلتها. الحقيقة أن إحدى سمات الإنسان المعاصر هي الملل، نحن لم نعد نستمتع بأي شيء.

عندما تنظر إلى الجمهور في أغاني أم كلثوم وهو يستمع لأغنية تتعدى الساعة وهو غير منشغل بأي شيء سوى بالأغنية والاستمتاع بها، و أقارنها بحالي و أنا أستمع لأغنية أحبها وفي نفس الوقت أتنقل بين التطبيقات والمو اقع، لقد كنا قديما نستمتع بأشياء قليلة محددة لكنها كانت ممتعة أكثر من ألف اختيار.

يقال إن المصريين قديما كانوا يفطرون فول وطعمية، ويتغدون كرة القدم، ويتعشون أم كلثوم، وكانت الحياة أجمل.

الدرس الأول

ألم أقل لك أنك ساذج؟

هل اعتقدت فعلا أنها عرضت عليك الدرس المجاني لتتقرب منك وتتعرف عليك أكثر؟

واهم يا صديقي!

ها أنت تقف وسط اثني عشر متدربا جديدا، ترتدي الجاكت، ترتدي معه الخجل، تعبر أمام مرايا القاعة، تختلس نظرة لنفسك، تعتدل سريعا وتضبط هندامك، تلقي نظرة أخرى، لا تخف، لا أحد ينظر إليك، تماما كما تتحاشى أنت النظر إليهم عندما يعبرون هم أيضا أمام المرأة، هذا عرض أزياء يتجنب فيه الجميع رؤية بعض.

اتخذت ركنا، وضعت يدي في جيبي البنطلون، وبقيت أراقب الجميع، دخل المدرب سريعا يرتدي جاكيت بلا أكمام والكثير الكثير من الوشوم والعضلات، بدأ كلامه بحركة من جسده أولا، مثل كل مرتادي الصالات الرياضية يجب أن يمر الكلام على عضلات أكتافهم وصدورهم أولا، كأنهم يرقصون بريك دانس مع كل كلمة ينطقونها، حسنا، هذا لا يهم، أين هي؟

لمحتها بعيدا خارج القاعة تتحدث مع مجموعة من القدامى، لست بحاجة هنا لحدس قوي لتعلم القدامى من الجدد، هناك مرتاحون في ملابسهم وآخرون مبتدئون، سهلة!

شرح لنا المعلم أشياء عن الدراجات النارية، ثم أشار لنا أن نتبعه للخارج، وطلب منا أن ننقسم إلى ست فرق وأن ننضم إلى مدرب، انضممت إليها سريعا، تطلب ذلك تأخيرا لخطوة، ثم لفة خلف اثنين من المتدربين، ثم خطوات سريعة لأسبق ثلاثة آخرين، ثم خطوات سريعة لأحافظ على السبق، ثم حدثت المعجزة: أصبحت أمامها.

«يبدو جميلا عليك.»

«شكرا.»

مدت يدها لتعدل من وضع الجاكت قليلا.

انضم إلينا رجل آخر، انتظر قليلا ثم عدل هندامه بنفسه، ظن الأبله أن هذا جزء من الدرس.

«هل أنتم جاهزون لركوب الدراجة النارية؟»

«بالطبع، نطق من بجانبي.»

قلت: «لا، ليس بعد.»

هزت إصبعها وطرف أنفها وقالت: «إجابة صحيحة.»

«أول شيء: يجب أن تعرفوا كل شيء عن الدراجة، يولد الانسان بقدمين لكنه لا يستطيع المشي حتى تنمو عضلاته، ثم يقف ثم تنمو

معرفته فيمشي، ثم تنمو معرفته فيجري ثم يلعب، وهكذا، يجب عليك أن تعامل الدراجة كأنها جزء منك، لا كأداة تركبها، السيارة يحميك جسدها، أما هنا فأنت والدراجة في الهواء الطلق، لن تحميك سوى معرفتك بها.»

«هل تعلم أحدكم استخدام المسدس من قبل.»

قلنا: «لا.»

«والدراجة النارية، الأول عندما تستخدم المسدس، لا يجب أبدا أن تترك مسافة بينه وبين يدك، ذلك سيمنح المسدس مساحة للارتداد وسيضاعف رد فعل المسدس، هذا سيجعل تصويبك سيئا وسيؤذي يدك أيضا، هنا أيضا يجب أن تتحد أنت والدراجة حتى تفهم إمكانياتها وتفهم عيوبها، يجب أن تعلم عيوبها لأنك في كثير من الأحيان مثل الملفات الصعبة سيكون عليك أن تعوض قصورها بإمالة جسدك بطرق ستتعلمونها لاحقا.

الأمر الثاني، اعصر ولا تضغط مرة واحدة.

في المسدس يجب أن تعصر الزناد، لأن العصر يخلف قوة ثابتة ولا يسمح لأي حركة فجائية من يدك أن تغير وضع المسدس أثناء الإطلاق، هل تعلمون أن القتلة المحترفين يتناولون أدوية تهدئ من ضربات القلب حتى يستطيعوا تنفيذ طلقاتهم في الفواصل بين نبضات قلوبهم.»

«لا، لم نكن نعلم»، رد كلانا بصيغة الجمع هذه المرة وكأننا أيقنا جهلنا.

«حسنا، لقد وصل المدربون، سنأخذكم الآن في جولة على الدراجات لنمنحكم جرعة من الترفيه أولا، إذا كنتم ستتعلمون هو اية فيجب أن يكون ذلك ممتعا في المقام الأول، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد!»

تركتنا وذهبت لتركب دراجتها، لن يركب معها أحد، ستتولى قيادة أو تأمين القول على ما أعتقد، في البداية ندمت على أني لن أركب وراءها، بعد الجولة غيرت رأيي تماما، أعتقد أن يدي تركتا عاهة مستديمة في جنبي من كنت أركب وراءه الدراجة من قوة تشبثي به.

أيقنت أني لن أستطيع أبدا أن أتعرف عليها في عالمها، كان السؤال الذي ظل معي أياما بعد ذلك هو هل تستحق كل هذا العناء؟ الحقيقة أن إجابة السؤال كانت محسومة من أول مرة ألقيته على نفسي، لكني بقيت أكرره لأزداد إصرارا مع كل مرة أردده فيها.

نعم، هي تستحق.

المراجعة

عزيزي أنت.

لقد دأبنا منذ مرحلة المراهقة على إجراء مراجعة دورية لمسارنا في الحياة وقراراتنا، لأني رأيت كثيرا من الناس يبتعد بهم المسار عما تمنوه وخططوه لأنفسهم، وتركوا أنفسهم في مهب رياح الحياة تقذفهم أينما تريد، كان ذلك في أحيان كثيرة نتاجا لأنهم خططوا مسارهم بناء على رؤية غير حقيقية لأنفسهم، يتساوى في ذلك تضخيمهم لإمكانياتهم وقدراتهم مع عدم إدراكهم لها، لذلك كنت دائما أضع في البداية فكرتي عن حقيقة نفسي نصب عيني، وأرسم على أساسها مسارا أتخذه سبيلا لتحقيق أهدافي في الحياة.

كنت أعتقد أن المراقبة المستمرة لمسار الحياة ضرورة قصوى لأن منعطفا واحدا خطأ كاف ليبعدك عن هدفك الأصلي مئات الأميال لتجد نفسك في نهاية الرحلة تائها محبطا، وكذلك فإني رأيت أناسا اتخذوا قرارا واحدا خاطئا وظلوا طيلة عمرهم يدفعون الثمن.

وكنت أبدأ دائما بمراجعة المسار لأنه الأشمل والأعم ولأن موقعي من حيث القرب أو البعد عن هذا المسار هو ما سيحدد لي لاحقا صحة قراراتي من عدمها.

اسمح لي أولا أن أشرح لك مفهومي عن فكرتي حول حقيقة نفسي: إن حقيقتك يا عزيزي هي قدراتك ومبادئك وأحلامك، يجب أن يكون لديك رؤية واضحة وحقيقية لقدراتك، فلكل شخص قدراته، و أنت لست كاملا، عليك أن تعرف ما تجيد وما قد تجيد وما لا تجيد.

أما مبادئك فهي تعتمد اعتمادا كبيرا على تربيتك وعلى قوة التزامك الأخلاقي، أما أحلامك فهي أهدافك التي تريد تحقيقها.

أما وقد فهمت كيف تكون فكرتك عن حقيقتك، فيجب أن تحذر جدا من أن يختلط رأي الناس فيك بحقيقتك، وحذاري أن تقع في فخ رسم حقيقتك وفق رأي الناس فيك، لتفهم مقصدي سأضرب لك مثلا فلسفيا قديما.

فلنقل أن هناك ليمونة عرضت على عدة أشخاص، البعض سيراها مستديرة والبعض سيراها غير متقنة الاستدارة، فإذا ذاقوها فمنهم من سيراها مرة ومنهم من سيحب طعمها، إن رأي الناس لا يعبر عن جوهر الليمونة، وكذلك جوهرك أنت وهو يمثل هنا حقيقتك.

رأي الناس لا يعبر أبدا عن جوهرك بل هو مجرد انعكاس لشخصيتهم عليك، أوبالأصح هوتناسب بين شخصيتهم وشخصيتك، فكل شخص يا عزيزي يعتبر نفسه مركز هذا الكون ويقيس الأشياء والأشخاص دائما من موقعه، لكن جوهرك هذا يا عزيزي هو ملك لك وحدك، ليس ملكا للناس، ليس ملكا لأهلك...

وبالتأكيد ليس ملكا لزوجتك، إذا تزوجت.

مراجعة المسار

عزيزي أنت.

إن حياتنا أنا و أنت –وقد قلت نفسي أولا لأني سبقتك في الوجود والحلول في هذا الجسد ليس إلا– تشبه السير في صحراء قاحلة، صحراء تبدو فيها كل التضاريس متشابهة، صحراء علينا اجتيازها لنصل إلى أهدافنا، لكن أحيانا أثناء المسير نحيد عن طريقنا، وأحيانا نسقط في واد وأحيانا نصعد إلى علو شاهق، وأحيانا نصطدم بتل أو جبل ونجد أنفسنا مضطرين للدوران حوله، وعلينا مع كل هذه المناورات أن نحافظ على مسارنا لا نحيد عنه، لذلك فإن علينا دائما أن ننظر إلى العلامات التي تحدد لنا الطريق، تلك العلامات تكون مبادئنا وفكرتنا عن أنفسنا، تلك هي النجوم التي ننظر إليها في الصحراء لتهدينا، إنها تلك القواعد التي وضعتها لنفسك كدستور لحياتك لا يقبل التغيير وهي لا تظل دائما واضحة، فإذا كثرت تنازلاتك عن هذه المبادئ ستخبو خلف سحاب التنازلات وتجد نفسك ضائعا، وسماءك ملبدة بالغيوم، وستجد نفسك تحدد حياتك على ما تراه أمامك من عقبات، حينها ستبدأ في تسيير حياتك بناء على موقفك من قضايا لحظية، وهذا الطريق سيأخذك حتما إلى الحضيض، إلى أن تسير حياتك كلها بناء على مشاعر و انفعالات لحظية، هنا يا عزيزي يكون الحضيض هو عجرفتك في إبداء رأيك و انفعالك الشديد على من يخالفه، ومحاولتك إثبات أن كل أمر تافه

تحبه هو قضية إثبات ذات و أنه من وجهة نظرك أمر يستحق الحياة من أجله ويستحق الموت من أجله أيضا، وكل هذا في الحقيقة يكون محاولة منك لإخفاء سطحية آرائك وعبثية حياتك، وهجوما منك تخفي به ضعف حجتك ودفاعاتك.

لأنك في هذه الحالة سيكون هدفك أن لا تسأل نفسك عن الهدف.

ستكون في هذه اللحظة تائها باختيارك.

كما أحب أن ألفت نظرك إلى أهمية النجاحات الصغيرة، فهذه تمثل الواحات الجميلة التي يركن إليها المسافر في الصحراء، فلا معنى لأن تعبر حياتك كلها في صحراء جرداء، بل أكثر من هذه الواحات الصغيرة في طريقك، فهي ستؤمن لك القدرة على الاستمرار، وتمنحك دفعة نشاط وأمل في أنك تبلي جيدا، وأحيانا في ضيم الصحراء تكون هذه الواحات هدفا في حد ذاتها، فقد يفيدك في وقت من حياتك أن تتخلى عن الأهداف الكبيرة لتحصل على أهداف صغيرة مهمة.

وهنا يتحتم علي أن أنبهك إلى أهمية اختيار أهدافك التي تريد بلوغها بعد اجتياز هذه الصحراء جيدا، وأن تكون على علم تام بطبيعتها.

فقد تستطيع السير على المسار الصحيح لتجد نفسك في النهاية في مكان لا تريده، وهذا خطأ شائع في الحياة، فهناك كثير من الناس ساروا في طريق الدراسة الصحيح ليجدوا أنفسهم في النهاية يمتهنون وظيفة يكرهونها.

مراجعة الإرادة

عزيزي أنت.

إن إرادتك في اتخاذ أي قرار تخضع لعدة معايير أولها وأهمها هو مدى حريتك في اتخاذ هذا القرار، ودعني أشرح لك وجهة نظري.

في عام المجاعة عطل خليفة المؤمنين عمر بن الخطاب حد السرقة عن المحتاج إذا سرق ما يقيم به أوده فقط، أدرك عمر ما توصل إليه علماء القانون بعد أعوام كثيرة عن نصيب إرادة الفرد في ارتكابه للجريمة، أدرك عمر أن الجائع تسيطر عليه غريزة البقاء، إذا، هو لم يختر السرقة بكامل إرادته بل ربما كان مجبرا، وهو ما نطبقه اليوم في المحاكم عندما يضع القانون لمدة العقوبة حدا أدنى وحدا أقصى لأي جريمة، ويترك للقاضي النظر إلى الظروف التي كان فيها الفرد ودو افعه لارتكاب الجريمة، إن القاضي هنا ينظر إلى الظروف كمشارك للفرد في إرادة الجريمة ويقيس نسبة اختياره الحر ويعاقبه عليها، هذه الظروف بدأت بالظاهرية، ثم توسعت الاعتبارات لتشمل حالة المتهم العقلية سواء كانت مؤقتة أو دائمة، لهذا مثلا نفرق بين من قتل خطأ ومن قتل في مشاجرة ومن قتل عمدا مع سبق الإصرار والترصد، ونفرق بين المجنون والمجنون مؤقتا والقاصر والعاقل.

إن ما ينطبق على إرادة الجريمة ينطبق أيضا على إرادتنا في قرارات حياتنا، إن هذه الإرادة ومدى تو افرها هي العامل الأول الذي

يحدد حياتنا، لذلك دأبت على أن أوجه هذا السؤال إلى نفسي، هل امتلكت كامل إرادتي في كل قراراتي؟ هل فعلتها كلها بملء إرادتي؟

وجدت لزاما علي أن أعيد مراجعة قراراتي كل فترة، لم أكن أراجع قرارات وقتية، بل قرارات مهمة أو مستمرة أو قرارات ترتب عليها قرارات أخرى مستمرة، ما كان منها عن كامل إرادتي استمتعت به وسعدت به واستبقيته، ما كان منها على غير ذلك راجعته وفحصته.

وجدت في أول مراجعة أنني جعلت الكثير من الخيارات غير المرغوبة مسلما به في حياتي رغم أنه كان يجب أن أبقيها تحت المراقبة، فربما تغيرت الظروف التي أجبرتني على هذا الخيار وأصبحت الآن قادرا على اتخاذ قرار لم تساعدني ظروفي عليه سابقا.

وجدت أن هناك عوامل أخرى تتدخل في قراراتنا غير الظروف، فعند إجراء المراجعة وجدت قرارات اتخذتها بناء على أوهام أو مخاوف، واتضح لي الآن عدم صحة الأوهام وتحصنت مع الأيام من بعض هذه المخاوف، وجدت قرارات أخرى اتخذتها بناء على توقعات أو استدلالات ثبتت صحة البعض منها وثبت خطأ البعض، وهناك قرارات اتخذتها مجبرا وبناء على كل الاعتبارات الخاطئة إلا أني وجدتها مناسبة لي فيما بعد.

لذلك دأبت على طرح هذا السؤال على نفسي قبل كل قرار: هل أنا أتخذ هذا القرار بملء إرادتي؟ وهل يتوافر لي العلم اليقيني بكل ما بنيت قراري عليه؟ ثم عدت أراجع نفسي كل فترة، فربما كنت الآن أستطيع أن أختار بحرية، ربما تغيرت الظروف وانقشعت الأوهام والمخاوف، أو ثبتت التوقعات أو خالفت ظني.

ولأني اندهشت أول مرة من كثرة هذه الخيارات الخاطئة التي تلازمني، فقد حرصت على إجراء عملية جرد لقراراتي دوريا.

فأي حياة أتوقع أن أحظى بها إذا كنت سأبنيها على قرارات أجبرتني الظروف عليها، أو قرارات اختلطت بأوهام ومخاوف وحسابات سيئة.

واعلم يا خليفتي في هذا الجسد أننا خضنا معارك كثيرة، لم نفز بها كلها بالطبع، لكن إرادتنا لم تنكسر أبدا لأننا كنا نعرف أن لكل معركة هدفين.

الهدف الأول هو تحطيم أسلحة العدو، وهذا حدث بضع مرات.

أما الهدف النهائي لأي معركة فهو تحطيم إرادة العدو.

وهذا لم يحدث أبدا.

كنا نخسر فنعود أكثر قوة، فالإحباط جزء من تجربة الحياة، أما الانكسار متى حدث فأعلم أنه سيكون نهاية هذه التجربة، وستتبعه في الغالب محاولات منك لإيذاء نفسك حتى لا يؤذيك أحد، أو حتى لا تنتظر أن يؤذيك أحد.

لم تستهلك مرحلة المراجعة وقتا كثيرا كما تصورت، لذلك قررت أن أستغل هذه الأيام الباقية لي قبل العملية في إجراء مراجعة شاملة لمراحل حياتي، فانتقلت إلى ما عزمت عليه من تصنيف لمراحل حياتي السابقة واختيار لقطات تعبر عنها.

هذه المرة كنت أوسع أفقا رغم عني، كنت قد بدأت أتقبل فكرة أن يشاركني عقلي الباطن في التفكير، ولأنه كعادته لا يظهر إلا في

ومضات أو لمحات بسيطة مثل الأحلام وزلات اللسان، إلا أنني في حالتي هذه كنت و اثقا أنه سيظهر في لقطات النهاية، لن يقبل عقلي الباطن أن أرحل بدون أن يمتلك النهاية، لقد عكفنا على اعتقاد أن ما يطلقه المحتضرون أثناء سكرات الموت من كلمات هو خزعبلات أو وساوس أو كلمات بلا معنى، لأننا ببساطة لم نسمع عقلنا الباطن يتكلم قبل ذلك، وقد وضعت سيناريو أخيرا في رأسي؛ رضيت فيه أن أترك هذه اللحظات لعقلي الباطن، مركزا كل جهدي في محاولة تذكرها، لتصبح مرشدا لي إن عدت.

في الصباح استيقظت على صوت فتى خدمة الغرف وهو يحضر طعام الإفطار، كان الإفطار مملا لكنه معد في صورة مبهجة.

كنت قد قررت أن إتناول طعام المستشفى منذ اليوم الأول على سبيل التغيير، ورغبة في عيش التجربة بأكملها، فربما تغير في التجربة شيئا لم أتوقعه، إنه طعام المرضى كما نقول عنه دائما، تكمن السخرية هنا في أن طعام الأصحاء الذي نأكله بدهونه وهرموناته هو ما يمرضنا ويدفعنا في النهاية إلى أكل طعام المرضى.

أتت الممرضة الحسناء لإعطائي جرعة الدواء المقررة، سألتني إن كنت قد تناولت إفطاري، فرددت عليها بأنني لم أتناوله بعد، قالت أنها ستعود لاحقا لأن هذا الدواء يؤخذ بعد الإفطار.

غزل الفراشات

الملل قد يفعل أكثر من ذلك... صدقني.

في تلك الأيام كان استخدام محرك البحث هو صيحة الموسم، علقت بوجداني الفراشة الطائرة على دراجة بخاريه، وجدت نفسي أبحث عن الفراشات في محركات البحث المعروفة وقتها.

المرأة تشبه حيوانها الأليف المفضل إلى حد كبير في طباعها، كنت أفضل دائما المرأة القطة المشاكسة، والمرأة التي تتخذ كلبا صغيرا كحيوان أليف، أما مقتنيات الكلاب الكبيرة فلم أكن أفهم أبدا ما هي العلة النفسية التي أصابتهم ليربوا مخلوقا بشع الشكل سيء الرائحة هكذا.

استغرقت في فهم الفراشات وقتا مستقطعا من عملي في الأغلب، وأعجبتني طريقة الغزل عند الفراشات، فقررت لسبب ما أن أطبق طريقة الغزل عند الفراش على الفراشة التي وقعت في غرامها.

فعقدت العزم على أن أبهرها بألواني ومفاجأتي مع كل تحرك جناح، وكان ما يحفزني دائما أنها لا تعتبرني أنا وألواني ومفاجأتي أمرا مسلما به، بل تسعى جاهدة لتعويضي ومفاجأتي.

عزمت أيضا أن أكون الملاذ الدافئ الذي تسافر إليه فراشتي لوضع بيضها.

الرسالة الأولى

ألم عظيم

بعد الدواء ومرور الطبيب كنت أستلقي وحيدا مع عقلي.

قمت إلى النافذة لأرى طفلا يطير طائرته الورقية مع جده في حديقة المستشفى، كنت دائما أستمتع بالطائرة الورقية، لقد كان رائعا أن أعتقد أن الطائرة جزء مني وأن جزءا مني يحلق في السماء.

وقبل أن أستغرق في التفكير أتتني الممرضة لقياس الضغط والحرارة، أو ما يسمونه هنا بالمتابعة اليومية، وهو شيء لا يمت بصلة لحالتي الطبية، لكنه يبدو جيدا في فاتورة المستشفى، جيدا لهم طبعا.

عادت الممرضة بعد ذلك بباقة ورد أخبرتني أنها جاءت باسمي في الصباح الباكر، أخبرتني أن هناك رسالة مع الورود، وضعت الباقة على الترابيزه بجانبي وأعطتني الرسالة ورحلت.

لم تحمل الرسالة اسم المرسل، كان مطبوعا على الظرف اسم محل الورود فقط... كان الظرف الخارجي يحمل اسمي واسم المستشفى ورقم غرفتي... فتحت الرسالة لأجد جملة واحدة.

(لا يجعلنا عظماء إلا ألم عظيم!)

أنا أذكر هذه الجملة جيدا، إن قائلها هو ألفريد دي موسيه، وإن من بعث هذه الرسالة يعرفني جيدا، فلقد احتلت هذه الجملة جزءا كبيرا من حياتي، كانت تعينني على مصاعب وآلام الحياة، فكلما عظم الألم كلما كنت أقوى بسببه، وكانت تمدني بالأمل أني سأكون عظيما إذا تغلبت عليه، إنها متلازمة من التناسب الطردي لطرقنا في الحياة، فكلما كان عبئك أكبر كان جزاءك لقاءه أكبر.

كان علي الآن أن أعدد آلامي التي واجهتها في الحياة، وأن أرى هل نجحت في التغلب عليها وخرجت منها أعظم أم لا.

أظن أنه يجب أن تفعل ذلك أنت أيضا، فرؤيتنا قد تختلف.

أتى الطبيب لمراجعتي ومعه كالمعتاد لفيف من الأطباء الأصاغر، كانت عيونهم تلاحق الأستاذ متلمسين العلم...

نظر الطبيب إلى ملفي، وكنت أتابع شفتيه وهو يقرأ التقرير ولمعت عيناه في نقطة، إلا أنه كعادة معظم الأطباء الكبار في مصر لم يخبر الأطباء الصغار بها، بل أخبرهم بشيء آخر مختلف وغير ذي أهميه، إن معظم حاملي العلم في كل مجالات الحياة في مصر غير أمناء وغير واثقين.

غير أمناء على نقل العلم إلى الأجيال التي تليهم، وغير واثقين من عقولهم، وإلا كانوا نقلوا العلم لغيرهم، فالواثق لا يخشى المنافسة.

أنا متأكد أن هؤلاء جميعا كرهوا أساتذتهم لأنهم حجبوا عنهم العلم، وها هم يحجبونه عن تلاميذهم، وها هم يكررون المأساة فيفرحون باستعلائهم ويستمتعون بنظرة الجهل في عيون تلاميذهم.

لو جرب أحدهم أن ينقل العلم بأمانة، ويرى نظرة الاحترام في عيون تلاميذه ما كان ليعود إلى هذا التصرف الحقير مرة أخرى، لكنه في النهاية ألم عظيم يجب أن يجابهه طالب العلم، عليه أن يخرج منه عظيما يمنح العلم لتلاميذه، أو يخرج وضيعا يحجب العلم ويستأثر به لنفسه، وهذا ليس شيئا يسهل تحقيقه أبدا.

إن الانسان الذي يتعرض لمعاملة سيئة لا يخرج عظيما بالضرورة، بل في أحيانا كثيرة يكرر ما تعرض له من معاملة سيئة مع غيره، بل أن عمقا أسود في نفس الإنسان يجيز له أن يعذب الناس بمثل ما تعذب به معتقدا أن له الحق في ذلك، أو معتقدا –وهذا أسوا– أن هذه سنة الحياة، وهذا يحدث دائما إذا استسغت الألم.

إذا بحثت للألم عن مبرر لتعذيبك.

إذا تقبلته كو اقع حياة يجب أن لا تهرب منه بل أن تستسلم له.

إن ذلك العمق الأسود إذا استسلم له الإنسان يكون هو الهاوية التي يلقي فيها بروحه للأبد، ذلك لأن الأسماء تتعدد، ولكن جوهر الألم واحد والاستسلام كذلك جوهر واحد، لذلك فإن استسلامك لألم واحد سيجعلك تستسلم للآلام كلها تلقائيا.

عندها فقط لن تقبل روحك أن تعود إلى هذه النفس المهترئة.

شهر العسل

في مقابلة السفارة سألتنا القنصل عن حجوزاتنا فقدمناها، قلت لها إني أواجه مشكلة في الحجز، لقد حجزت الفنادق بسهولة، لكن عندما دخلت لمواقع الأرصاد وجدت اختلافا شديدا، فهل يمكن أن أحجز من أحد هذه المواقع طقسا مناسبا لشهر العسل أيضا، ضحكت القنصل وهنأتنا بالزواج.

أقمنا حفل زفافنا في حديقة منزلنا.

أنفقنا على حديقة الجار (الفيو) مبلغا يقارب ما أنفقناه على حديقتنا، لكنه في النهاية عائد لنا، وكنا سننفق هذه المبالغ في جميع الأحوال، سربت حبيبتي خبر سفرنا بعد الزفاف مباشرة لكلا العائلتين، حتى يتسنى للجميع إهدائنا ما ينوون إهدائه يوم الزفاف، وبالفعل كانت الصفقة رابحة جدا، خرجنا بمبلغ ممتاز يكفينا سفرات عديدة وليس شهر العسل فقط.

«بل لشهر واحد فقط»، حسمت زوجتي الأمر، ثم زادت: «إذا تبقى أي مبلغ سأشتري به أشياء لا أحتاجها، دعنا ننسى الحساب لمرة في حياتنا يا حبيبي، فلدينا الكثير من الديون عندما نعود».

بدأت رحلتنا من أكثر الأماكن رومانسية على وجه الأرض، روما الساحرة اختطفتنا من أول لحظة بطرقاتها الممهدة بالطوب،

المعدة فقط لسير الأحصنة، تعطي اهتزازا مريحا طوال السير عليها، طرقاتها الصاعدة الهابطة وذلك لأنها بنيت على سبع تلال، المشاهد الخلابة الطبيعية التي تلوح في كل طريق ومنعطف، التماثيل والنصب التذكارية التي تملأ كل الشوارع، لا تفيق من انبهار بمشهد قبل أن يصدمك انبهار آخر، اخترت محل إقامتنا قرب وزارة البحرية الإيطالية، على نهر التيبر مباشرة، وقرب كل شيء، رحلتنا اليومية من بياتزا دي بوبولو، ثم نمضي في شارع فيا دل كورسو، ثم يمينا مرة، ويسارا مرة من عند شلالات الشكولاتة، نبتاع تيراميسو من بومبي، ونجلس على السلالم الإسبانية، أو نمضي الوقت قرب نافورة الأنهار الأربعة، ونلقى التحية على تمثال نهر النيل الذي يغطي رأسه لأنهم وقت بناء التمثال لم يكونوا قد اكتشفوا منابعه بعد، نذهب إلى الفاتيكان مرة، نشتري بيتزا إيطالية طوال الوقت، الجميل أنهم يسمحون بالتنوع، البيتزا أمامك على شكل مستطيل، أنت تختار قطعة من هذه وقطعة من هذه، يزنون كل قطعة على حده لأن لكل قطعة ثمنا.

في الليل سحر روما مضاعف، الرطوبة الخفيفة، الهواء البارد، الأغاني في كل مكان، رقصنا كثيرا في الشارع، قبلنا بعضنا كثيرا على أنغام أغنية كانتاري، روما ليست للعزاب يا صديقي، لم تكن أبدا لهم.

حضرنا عرضا لأوبرا عايده، كان علي أن أتأنق لهذه المناسبة، الأوبرا في حد ذاتها مناسبة، حاولت قدر استطاعتي مجاراتها، لكني عندما خرجت وجدت نفسي في حيرة شديدة، سألت فراشتي عن سبب اعتزازنا بأوبرا عايده، بل لماذا نسميها عايده من الأساس،

فعايدة، أو أيدا كما يجب أن نطلق عليها هي أميرة حبشية وقعت في الأسر، ولم تعلن عن شخصيتها الحقيقية، ووقع في غرامها قائد الجيوش راداميس، ونصبت له كمينا لكي تعرف تحركات الجيوش المصرية، وبالفعل عندما تقابلا طلبت منه أن يهربا معا، فأخبرها أنه يمكن أن يهربا بعيدا عن الجيوش المسلحة من الطريق الذي سيهجمون منه على الجيش الحبشي، فسألته أي طريق فأخبرها أنه سيهجم عن طريق مضيق نباتا...

سمعها أبوها الذي كان يتنصت على حديثهما وأبلغ جيشه بخطة الجيش المصري، وفي النهاية حوكم راداميس بتهمة الخيانة العظمى وحبس راداميس في خندق حتى الموت، وتسللت هي لتلقى معه نفس المصير، الأوبرا جميلة لا شك، لكن لماذا نعتبرها رمزا قوميا، لم أفهم ذلك أبدا.

وهكذا أمضينا أيام روما نتسكع في الطرقات، نستمتع بهذه المدينة الساحرة، نطلب طعاما إيطاليا، فنكتشف أن الطباخ مصري في معظم الأوقات.

حسنا فلندلل أنفسنا ما دمنا لن نعود بنقود معنا، اخترت أن تكون محطتنا التالية هي ممرستيلفيو، وصلنا إلى الفندق في المساء، لم نكن نرى أي شيء حولنا، نمنا من الإرهاق، وفي الصباح استيقظت مبكرا وتناولنا إفطارا سريعا، وخرجنا إلى باحة الفندق لنجد الجميلة في انتظارنا، سيارة فيراري العنكبوت الحمراء المكشوفة في انتظارنا، كنت قد رتبت مع الفندق استئجارها، توقفت قليلا لأرى فرحتها، احتضنتها ثم خطوت سريعا للأمام مثل ما فعلت يوم الدرس المجاني،

فتحت لها الباب، وانحنيت وأحنيت رأسي وأنا أنظر إلى حبيبتي، رفعت رأسي بيدها وقبلتني، ركبت السيارة، أغلقت الباب ودرت حول السيارة من الخلف لأركب بدوري، رفعت عيني ولثانية اهتززت، لم أكن رأيت الممر والجبل في الليل، إن منظره مهيب حقا وشيب الثلج يكسو أصداغه وقمته.

ركبت وقد أزلت عني الاهتزاز، أحكمت حزام الأمان وطلبت منها ذلك أيضا، ثم بدأنا رحلتنا، هذه السيارة لا تنتظر منك الإذن لتركض، هناك حصان في مقدمتها بلا لجام يدفعها وراءه، عانيت قليلا لأتذكر كيف أقود سيارة بناقل يدوي، بدت السيارة تثب كجمل في صحراء ناعمة الرمال، ثم توليت الأمر، تصورت أن مهمتي ستكون الانطلاق بالسيارة، لكن اتضح أنها تفعل ذلك وحدها، كانت مهمتي كبح جماحها، في البداية نجح ذلك، ثم وجدتني أنساق وراء حصان المقدمة الجامح.

الجميل في هذه السيارة أنك بمجرد أن تضع يدك على مقودها لن تتركه، حرفيا، الإشارات، المساحات، إغلاق وإشعال المحرك كل ذلك في المقود، وفي أعلاه يوجد ضوء أحمر يخبرك بحال ناقل الحركة، فإذا وصل لأقصاه عليك أن تنقل إلى الغيار الذي يليه.

هنا على أرض ممر ستيلفيو، أخطر طرقات جبال الألب الإيطالية كان ذلك الشرقي الذي بداخلي يحاول أن يذبح القطة لزوجته، ولدقائق أحس أنه يكاد ينجح، حتى خلعت زوجتي حزام الأمان، ووقفت تواجه الهواء، منظر كان علي فيه أن ألقى بأي حساسيات جانبا، وأستمتع برؤيتها وهي ترتدي فستانا سماوي اللون يتعارض

بجمال أخاذ مع لون السيارة والثلج والجبال في جانب، ثم يذوب في السماء ليزيدها جمالا في جانب آخر، والمنظر في الصعود يكشف لنا جوانب جديدة في كل مضمار.

بعد نزولنا تبقى نصف ساعة من إيجار السيارة، فذهبنا بها لشراء بعض البقالة من السوبر ماركت، الآن صارت لدينا قصتان لنرويهما.

في النهاية عدت سعيدا منتشيا، وعاد الشرقي خائب الرجاء.

...

صباح اليوم الثاني فعلت هي ما فعلته أنا اليوم الماضي، اللعنة، لقد استأجرت دراجة نارية وسنصعد الجبل على متنها، ألف لعنة.

لم أدر ماذا أفعل، تذكرت الدرس الأول والعاهة المستديمة التي أحدثتها في جنبي من كنت أركب وراءه، الآن هي ستكون أمامي، و أنا ذكر لا يجب أن تحس أنثاه بخطر، فما بالك بأن تكون الأنثى مستمتعة بهذا الخطر، تخشبت، تيبست كل أطرافي، أخذت أغمض عيني عند كل ملف، عند اجتياز سيارة أو دراجة أغلق عيني و أفتحهما، أغلقهما خوفا من القادم، و أفتحهما خوفا من القادم أيضا، كنت متيبسا منكمشا كأرنب، لم أجبن في حياتي جبنا كهذا، جبن الأرانب مضرب الأمثال، الأرنب إذا خاف سكن، لا يحاول المقاومة، لا يحاول القتال، يسكن فقط، الآن بدا قائدو الدراجات الذين أشفقت عليهم في المرة الأولى أفضل حالا بكثير، ظللت أبحث عن شيء ليزيل الخوف، أو ليعبر عنه دون أن تدري هي...

تذكرت مشهدا من مسلسل جاسوسية نصح فيه العميل السري الروسي إحدى الجواسيس بأن أسهل طرق التغلب على جهاز كشف الكذب هو أن تعتصر فتحة الشرج، ذلك الفعل يمتص أي توتر وفي نفس الوقت خفي لا يراه أحد، أخذت أعتصر أعتصر، حتى أني واجهت صعوبة في قضاء حاجتي لأشهر طويلة بعدها، تناولت بعض

الملينات ثم أدوية البواسير المعروفة حتى أدركت أنها لن تفيد، فهذه حالة فريدة، وكلما فكرت في الذهاب للطبيب صدمتني صورة روس في مسلسل الأصدقاء والطبيب يشرح للأطباء الصغار درسا عمليا على مؤخرته فأصرف النظر.

استغرق الصعود نصف ساعة، أسوأ نصف ساعة في حياتي، نصف ساعة لا أود تذكرها أبدا.

تحججت بألم في ظهري، وطلبت أن أعود بسيارة، ونتقابل في الفندق، وكانت هذه آخر مرة أركب معها دراجة نارية، ليتها لم تكن كذلك، ليتني كنت معها حيث ذهبت.

الخواجة يني

«الخواجة يني غلط في الحساب».

أقولها و أنا أنظر لزوجتي وأضحك.

فتضحك هي ضحكة بريئة.

الخواجة يني قصة لا أعلم إن كانت حقيقية أو لا، تحكي عن أجنبي كان يعيش في مصر، حسب هذا الرجل أنه لن يعيش أكثر من عشر سنين، وليس لديه ورثة أو أقارب، فقرر أن يبيع كل ما يملك ثم يعيش ببذخ هذه العشر سنوات، لكنه عاش أكثر من عشر سنوات بكثير، ولم يكن يقدر على الكسب، فأخذ يسأل المال من المارة مبررا ما يفعله بقوله الخواجة يني غلط في الحساب.

انتهت نقودنا ونحن على مشارف باريس ولم تنته الأجازة، وباريس كانت الجزء الأهم فيها، وتكلفة تغيير التذكرة أكبر من تكلفة البقاء، وزوجتي كان لديها لقاءات كثيرة هنا، لذلك جعلت باريس آخر محطة في شهر عسلنا.

اتصلت زوجتي بوالديها لطلب المشورة وأخبروها أن بعض الأقارب كانوا قد عرضوا أن نقيم معهم، ذهبنا لهم بالفعل، و أقمنا معهم.

وذهبنا في اليوم التالي إلى مونمارتر، لنقابل بعض الأصدقاء من الفنانين التشكيليين الذين تعرفت عليهم زوجتي عندما كانوا يزورون مصر لحضور معارض للفنون التشكيلية، وأعجبوا بموهبة زوجتي، كانوا من الأكاديميين ورسامي مونمارتر، هم من ساعدوني لاحقا لأرسل ابني للدراسة في فرنسا.

في أول زيارة لمونمارتر لم أفهم شيئا كالعادة، همست زوجتي في أذني: «لا تستعجل الفهم الآن، نظرتك ستختلف تماما بعد أن تزور الساكر كير، كنيسة القلب المقدس وهي على بعد خطوات من هنا.

كان معها حق في ذلك، الرسومات على نو افذ الكنيسة تحديدا هي الأكثر تأثيرا في النفس، والأكثر بوحا بمكنونات طريقة الرسم.

جميع النو افذ بها قضبان متداخلة كثيرة لا تلاحظها إلا إذا أمعنت النظر، والضوء يسري بينها بتموجات و إيحاءات مختلفة، هكذا كان يفعل كل رسامي مونمارتر، كل رسامي العالم، يحدثون تأثيرات يعكسون بها الطبيعة على أرواحهم، أو يعكسون أرواحهم على الطبيعة، ويسعون لتملك لوحاتهم، فلا يظهر فيها أي مؤثر خارجي كقضبان حديدي، ولا يسري فيها ضوء بدون أن يطوعوه ليعكس مذهبهم في الرسم.

تركتها تتحدث وتجلس معهم، جبت الحي مرات، جلست في الحدائق مرات أخرى، أردت منحها أكبر مساحة ممكنة، بالطبع لم أكن أستطيع العودة إلى المنزل بدونها فنحن لسنا في فندق.

كنت أعود كل مرة لأجدها مع أصدقاء جدد، لكن بحكم السن لم يكن هناك من في جيلها سوى مونيك، وكانت نيكول الأقرب لها من الكبار، لاحظت أن الأمر تطور بينهما إلى صداقة فعلية عندما عرفت أنها حكت لهم ظروفنا.

عرضوا عليها المساعدة؛ كل بطريقته، أخبرتها مونيك أنها تحتفظ دائما بكنبة لصديق ويمكننا الانتقال إلى منزلها في أي وقت، لا تقلقا إنها ليست كنبة بروكروست، أضافت مونيك وهي تضحك، وعرضت عليها نيكول أن تأخذ مكانها في مونمارتر لأربعة ساعات في اليوم لأنها لا تستطيع أن تداوم اليوم كله لظروف علاجها، على أن تستخدم أدواتها أيضا، وهذا أمر لا يعرضه رسام إلا إذا وثق في زميل كاره جدا، على أن يقتسموا ثمن ما تبيع زوجتي بالنصف.

تحمست زوجتي للعرض الثاني، واعتذرت عن الأول رغم أن مونيك أخبرتنا أن الكنبة في غرفة صندره، وتتمتع بخصوصية كاملة، وسنتشارك معها الحمام فقط، لكننا اعتذرنا بكل أدب.

في طريق العودة للمنزل ابتاعت زوجتي جاكت بنيا فضفاضا من إحدى متاجر الملابس المستعملة، ارتدته وأخذت تدور حول نفسها في الشارع لتريني إياه، كان شكلها وهي ترتديه مضحكا، لكنها كعادتها كانت تبدو ساحرة، كنت أجوب باريس في الأربع ساعات التي تعمل فيها، أذهب إلى مكاني المفضل، المكتبة العامة في بيرسي ومما حولها، صادف وجودي هناك مع أسبوع مخصص لأفلام يوسف شاهين في مركز السينما في بيرسي سين، دخلتها كلها اشتياقا لمصر فقط، مصر تتركك لتعود أنت إليها بسرعة، ثم أجدني في مونمارتر

مرة أخرى، كنت لا أقترب منها بل أكتفي بالمشاهدة من بعيد، توقعت أن تكون رسوماتها مزيجا بين الشرقي والغربي، لكنها أبهرتني بمنافسة رسامي مونمارتر في مجالهم، لم تحاول التجديد بل أبدعت في نفس نطاقهم ومجالهم...

كان موقعها بجانب مونيك تماما، إلا أن فراشتي اجتذبت زحاما لافتا حول رسوماتها، مما أثار حفيظة مونيك بصورة لافتة خصوصا عندما عرض بعض أقدم رسامي مونارتر شراء لوحات من زوجتي، لكنها رفضت وقدمتها لهم كهدية، لكن ذلك لم يمنع توطد صداقتهما، وإن كانت تلك الحادثة وغيرها تركت نفسنة مبطنة بين الصديقتين، وهو أمر عادي في أي صداقة بين سيدتين.

الجيتو العربي

لم أرها تثور هكذا من قبل أو من بعد.

كنا قد نزلنا باريس في ضيافة أحد معارف والديها، أقمنا في منزلهم، وذهبنا معهم في أول يومين إلى تجمعات تقيمها الجالية العربية هناك، ثم قررت صاحبة البيت أن تقيم لنا مأدبة غداء مصرية، لأننا بالتأكيد اشتقنا للأكل المصري، من وجهة نظرها بالطبع.

حضرت لنا الملوخية، والملوخية، وكما جرى العرف لا يجوز أكلها بدون طشة وشهقة، أدى ذلك إلى انطلاق إنذار الحريق.

تجمع الجيران تحت العمارة لتنظر لهم صاحبة البيت من النافذة وتقول بكل سخافة الدنيا: «أنا فقط أطبخ».

«Just cooking!»

وأخذت تكررها بابتسامة سمجة، هنا ثارت زوجتي في كل الحاضرين: «ما عذركم؟!»، وكررتها. «لقد جئتم إلى بلد محترمة بعد أن كنتم تنسبون إلى بلدكم عدم الاحترام، فماذا فعلتم؟»

وجهت كلماتها لصاحبة البيت: «أنت، لم تنتظري إشارة مرور المشاة لمرة واحدة، لم تعبري كثيرا من أماكن عبور المشاة، والآن تزعجين جيرانك وتفزعيهم، ما عذرك؟ ما عذركم؟»

«لقد حضرت تجمعاتكم ولم أفرح بها، أنتم تعيشون في جيتو كما كان اليهود يفعلون قديما، لا تندمجون، لا تحترمون قوانين البلد التي تحتضنكم، أصبحتم تعيشون في جيتو عربي».

نظرت لي: «سنرحل الآن».

لم أناقشها في الأمر، فعلا كانت التصرفات مقززة، أن تسعى لتعيش في مجتمع محترم من وجهة نظرك، ثم ببساطة تقرر ألا تحترمه، أمر مقزز بالفعل.

لا بوهيما

لدي دائما كنبة لصديق!

قالتها مونيك فور أن رأتنا على عتبة بابها، قالتها بضحكة عذبة حاولت أن تمحو بها عنا أي حرج، لم تستغرب من حضورنا المفاجئ ومعنا حقائبنا، فهمت لاحقا أن زوجتي حكت لها عما يضايقها، كانت هذه أول مرة يقاسمني فيها أحدهم.

الكنبة كانت في غرفة صغيرة في الصندرة، غرفة لا تكفي لأن يقيم أحدنا ظهره، والنوم على ملاءة على الأرض.

وهكذا في غمضة عين أصبحنا بوهيميين؛ ينطبق علينا تعريف قاموس الأكاديمية الفرنسية: «شخص يعيش حياة التشرد وحياة غير منتظمة بدون موارد مضمونة، ولا يقلق حيال الغد».

لكن كانت زوجتي تشع جمالا وسعادة في هذه الأيام، لقد حلمت كثيرا بأن تعيش هذه الحياة بكل تفاصيلها، وها هي تعيشها، فهمت الآن سبب إصرارها على مرافقتي لها في هذه الفترة، كنت قد عرضت عليها أن أعود لعملي في مصر على أن تكمل هي هذه الفترة وتلحقني، ولكنها أصرت على وجودي معها في هذه الفترة، وقد كانت هذه الفترة أجمل أيام حياتنا بالفعل، حتى عندما كانت تعتذر لي لأنها أجبرتني على الإقامة في هذه الظروف كنت أرد عليها بمثل تونسي تعلمته من

أحد أصدقائي هنا: «الشنجه مع الجماعة خلاعة (يعني أنك حتى لو كنت ذاهبا لتشنق مع الجماعة سيكون الأمر هينا).

كانت تردد كثيرا أغنية البوهيمية، أحيانا بطريقة أيديت بياف، وأحيانا بطريقة شارل أزنافور، وكنت أنا أقوم بالحركات التأثيرية.

لا بوهيما، لا بوهيما كانت تعني أننا كنا سعداء.

لا بوهيما، لا بوهيما بالرغم من كوننا لا نأكل إلا مرة كل يومين.

في المقاهي المجاورة.

كنا أناسا ننتظر المجد، مع كوننا بؤساء.

بالرغم من بطوننا الخاوية.

لم نتوقف عن الإيمان به.

في بعض الحانات، في مقابل الحصول على لقمة دافئة.

نبيع لوحة، نذهب نقرأ الأشعار.

نتجمع حول المدفأة ننسى الشتاء.

لا بوهيما، لا بوهيما كانت تعني أنك جميلة.

لا بوهيما، لا بوهيما كانت تعني أننا مبدعون.

نجلس أخيرا.

أمامنا القهوة مع الحليب.

متعبون لكن مبتهجون.

أحببنا بعضنا؛ فأحببنا الحياة.

لا بوهيما، لا بوهيما كانت تعني أعمارنا بالعشرين.

لا بوهيما، لا بوهيما كانت تعني أنا عشنا روح عصرنا.

لا بوهيما، لا بوهيما كنا شبابا، كنا مجانين.

كانت هذه أغنيتنا المفضلة؛ نغنيها وحدنا ونحن نتمشى، نغنيها ونحن مستلقين على الملاءة التي لا تمنع الخشب من رسم خطوطه على جسدينا، نغنيها في مقهى أو لابان أجيل؛ حيث نتجمع مع أصدقائنا البوهيميين.

نتدثر في بعضنا أنا وهي، ونغني معهم.

أحببت هذا المقهى كثيرا، رغم بعده عن سكننا إلا أننا كنا نذهب إليه يوميا، إنه النقطة الأخيرة التي تشع بوهيمية في باريس، أحببته وأحببت هذه الحياة أيضا.

صحيح أن البوهيميين أنفسهم اختاروه هربا من أسعار مقاهي وسط باريس ومن متصنعي الثقافة والبوهيمية لكنه كان يحمل روحها.

حاولت أن أعثر على مكان مشابه هنا في مصر، ذهبت أولا إلى مقهى ريش فوجدته أبعد بأسعاره من صنعوا اسمه، ظللت أفتش عن مقرهم الجديد، فوجدته في مقهى زهرة البستان، تعامل خشن،

تطلب شيئا، فيطلب منك المقابل قبل أن ينزل حتى، لكنه أفضل سعرا وأكثر أريحية، ثم عرفت أن هناك مقرا جديدا، لكن صرفني في جميع الأحوال كثرة المدعين وصعوبة دخول الدوائر.

الرسالة الثانية

شمعة تحترق من الجانبين.

تكرر نفس الروتين الصباحي.

هل هناك مبرر لهذه الرتابة، هل يقصدون منها أن يهيئوك للحياة الأخرى، أو ينفرونك من الحياة فلا تندم على تركها، أم يريدون أن تتعود عليها فتعود ثانية بدون مبرر.

أتى الطبيب اليوم ليخبرني أن فترة بقائي هنا ستطول قليلا، وأنهم لم يحددوا موعدا للجراحة بعد.

أتت بعده الأخصائية النفسية محاولة أن تجعلني أتكلم معها، أردت أن أخبرها ساخرا منها أني لا أفكر في الانتحار، إلا أن ذكر الانتحار كمثل ذكرك لأي شيء تحاول أن تنفيه يكون علامة على أنك تفكر فيه.

أتت باقة الورد اليوم بألوان مختلفة، ومعها رسالة أخرى، ربما كان من يبعثها لا يعرف لوني المفضل، في هذه الحالة أنا أيضا أعذره أو أعذرها لأني أنا نفسي لا أعرف لوني المفضل، فلم أعر أبدا اهتماما للورود، كنت أعرف متجرا أقصده إن أردت أن أهدي وردا لامرأة وكان هو من يختار، وكان صاحب المتجر مثلي تماما لا يأبه بالورود، كان ينطبق عليه المثل الألماني: « أن من يتاجر بالورود لا يشم رائحتها»،

ولم يكن هذا عيب الرجل، فكلنا نزهد فيما نعتاد عليه، على كل حال فغالبا لم يعد هناك ورود مميزة، أصبحت طريقة لف الورود على آخر صيحة من صيحات الموضة أهم، وتضاءلت أهمية الورود ذاتها، فتحت الرسالة لأجد الكلمات التالية.

«إن من لا يعرفك يرغب في شرائك».

هنا تأكد لي أن من تبعث الزهور امرأة؛ كنت أعرفها، فأنا أميل بطبعي لإبهارهم ببلاغتي وأدبي، فهي ميزتي الأولى، ربما حدثتها بهذه الكلمات وأرادت أن تذكرني بها، ربما تكون هذه هي ألوان الورود التي أرسلتها إليها من قبل.

يا للمسكينة، أتعتقد حقا أني قلت لها وحدها هذه الكلمات، أتعتقد حقا أني اخترت لها هذه الزهور.

عدت إلى كلمات الرسالة مرة أخرى، و ابتسمت على غير إرادة مني.

إنه مثل برازيلي أحبه، بل وأردده لنفسي كثيرا، كلما حاولت أن أظهر عكس ما أبطن، كلما كنت أتصرف بعكس طبيعتي، فقد كنت حريصا دائما أن يعرفني كل من يقترب مني على حقيقتي، لذلك فقد كنت أحرص دائما على أن أظهر كما أنا في الحقيقة، إلا مع زوجتي لقد سمحت لنفسي ببعض التغير، أقنعت نفسي لفترة أنه حقيقتي، ولكن الحقيقة أنني لم أكن أبدا أقبل بأي مخاطرة في علاقتي بها.

بالطبع جلب لي الكثير من المشاكل، و أبعد عني كثيرا من الناس، لكنه جنبني مشاكل أخرى كثيرة جدا....

عموما كان عدم التصنع هو الاختيار الأفضل لي دائما لأني أثق في أني لن أستطيع التمثيل كثيرا، و أعتقد أن التصنع هو الخطأ الذي يحكم على معظم العلاقات بالفشل، فالناس عادة يتجملون في بداية الحب، بل يحاولون في بعض الأحيان إعادة بناء شخصيتهم لأنهم يعتقدون أن الطرف الآخر لن يحبهم كما هم، والحقيقة عكس ذلك تماما...

إن شعلة الحب تساعد كثيرا على تقبل عيوب الطرف الآخر، أما أن تنتظر أن تخمد شعلة الحب وتبدأ في إظهار عيوبك فهو حمق شديد لأنه يعتبر هدما مزدوجا للعلاقة، يكون حالهم هنا كمن يشعل شمعة من الجانبين ثم يتعجب أنها نفدت سريعا.

...

أتى لزيارتي بعض زملاء العمل في المساء.

فقد كنت أخبرت مديري للأسف، لكي لا يزعجني بطلباته التافهة أو اتصالاته السخيفة أثناء الأجازة، وقد تولى هو إخبار الكل، وسمح لهم بالخروج باكرا كي يتمكنوا من زيارتي، لكنه كالعادة منعته مشاغله من الحضور، أما زملائي فقد أخذوا يديرون عيونهم في الغرفة كثيرا ويسترقون السمع مع كل صوت قدم نسائية قادمة في اتجاه الغرفة، وأسعدتني خيبة الأمل في عيونهم، فلقد كنت دائما لغزا لهم، اعتقدوا أنهم سيستغلون ضعفي الآن في فك شفرة حياتي، وربما كانوا يبحثون عن شيء يجعلونه مادة لأحاديث المكتب غدا، سألني أحدهم عن الزهور، وأخبرته أنها من ابني، فقد منعته من المجيء حتى يفرغ من امتحاناته، وهو يحاول أن يعوض غيابه بإرسال هذه الورود.

كنت قد أخفيت الرسائل فلم يروها، وانشغلوا في حديث نميمة لم أكن طرفا فيه كعادتي رغم محاولاتهم الحثيثة هذه المرة لإشراكي في الحديث، لكني كنت أرى دائما أن النميمة ضعف، وكنت دائما أفضل أن أكون ممن يتحدث عنهم الناس، لا من يتحدثون عن الناس لأني كنت أرى أن هؤلاء النمامين أشخاصا بلا حياة تشغلهم، استأذنوا في الرحيل بعد أن فشلت رحلتهم الاستكشافية، تلقيت اتصالا بعدها من ابني يطمئن على حالي، بعدها عدت لنفسي.

اعترف أنني فكرت قليلا فيمن يرسل لي هذه الرسائل، لكني كما ذكرت مسبقا؛ أفضل أن ينشغل بي الناس عن أن أنشغل بهم، وضايقتني فكرة أن من أرسلتها أرادت أن تكون غامضة، وأنها تتوقع أن أكون منشغلا بالبحث عنها الآن، ومنشغلا في التفكير فيها بعد ذلك، أردت أن أشكرها لأنها تذكرتني، لكن افتخاري بوحدويتي و انعزالي لم ولن يتغيرا، لن يؤثر في لفتة بسيطة من امرأة لا أعلم إن كانت مهمة في حياتي أم لا، ربما كانت فعلا هي الأقل أهمية فيمن عرفتهم في حياتي...

إنها مثل هؤلاء الزملاء المستكشفين؛ أرادت أن تستغل ضعفي لتجبرني على منحها حيزا في حياتي، وهذا بالنسبة لي مبدأ غير مقبول، فأنا -كما أخبرتك سابقا- أكره مظاهر الضعف.

...

في الصباح تكرر الروتين المعتاد.

بما أن فترة الإقامة ستطول؛ لم يأت الطبيب الكبير لزيارتي اليوم، أصبحت الآن بالنسبة له مهمة مؤجلة، أتى طبيب جديد وعلى وجهه ابتسامة سعادة، سألت الممرضة عن سبب سعادته بعدما غادر فأخبرتني أنه ناقش رسالة الماجيستير قريبا، وقد علم اليوم أنهم قبلوا تسجيله للدكتوراه، استغربت كثيرا؛ فهؤلاء الأطباء ومثلهم كثير من الناس، وقد كنت واحدا منهم يحيون مثل سيزيف، ذلك الرجل الذي غضبت عليه إلهة الأولمب، فحكموا عليه بأن يدحرج حجرا إلى أعلى جبل، وكلما وصل إلى قمه الجبل ردت الإلهة الحجر إلى الأرض مرة أخرى... كنت من هؤلاء الناس الذين يصعدون جبلا ثم يدحرجون الحجر بأنفسهم، وبسرعة إلى سفح جبل آخر، ربما لأن الرحلة أعجبتهم، وربما لأنهم أدمنوا الطريق، أو لأنهم تعودوا على ألا يعيشوا في راحة، فبعض الناس يا عزيزي يبحث عن شقائه، وإن لم يجد ما يشقيه يبتكره لنفسه، لكني تعلمت مع الوقت أني يجب أن أستريح قليلا على كل جبل، أن أستمتع بالقمة قبل أن أصعد طريقا آخر، وأن آخذ وقتا مستقطعا لأجري تقييما من أعلى الجبل لأي قمة أريد أن أرتقي بعد ذلك؛ مهتديا بالنجوم كما شرحت لك سابقا، وكنت دائما أحذر من إطاله الوقت فوق القمة إلا إذا كنت سأقضي باقي حياتي عليها.

مونيك

أصبحت مونيك أمرا مؤثرا في حياتنا.

أول مقابلة معها في باريس.

النوم على كنبتها.

الغيرة التي أشعلتها في وجدان زوجتي.

تترك باريس لاحقا ونتبعها نحن.

كانت زوجتي مؤثرة في حياتها أيضا.

تقول لها زوجتي أن تترك حياتها وصديقها وتذهب لإكمال دراستها، تسأل هل تجده عندما تعود، ترد زوجتي: «أنت لا تهتمين، أنت لا تهتمين.»

«اتركيه، إنه يأكل روحك.»

نصيحتها السهلة والمؤثرة نجحت مع مونيك وأخافتني، ماذا لو تركتني أنا الكئيب الممل بهذه السهولة، تعلمت الدرس من كلماتها، عادة ما تكون نصائحنا للغير هي أكثر تعبيرا عن مخاوفنا، لذلك فلم أقترب أبدا من روحها المنطلقة، لم أحاول تغييرها، لم أحاول تهذيبها، لم أحاول إعادة توجيهها، لم أقترب من روحها أبدا.

ألومها كثيرا لأنها تركتني في النهاية من أجل هوايتها وشغفها، وألوم نفسي لأني تركتها، أقول إنه كان يجب أن تتركها من أجلي، لكن لو كانت تركتها كانت لتتحول إلى نسخة باهتة، هل كان سيفيدني العيش مع هذه النسخة الباهتة وقتا أطول.

قرب رحيلنا حدثت حادثة صغيرة، نزلت في المساء لدخول الحمام، فنحن نتشارك مع مونيك حماما واحدا كما قلت لك، وقد كانت مونيك محافظة جدا ومراعية جدا لوجودنا، تدخل إلى الحمام مرتدية كامل ثيابها، لا تترك ملابسها وأشياءها الخاصة في الحمام، لكن في ذلك اليوم وجدتها مستلقية عارية تماما على مقعد في الصالة، تتمتم بأشياء غريبة، كان واضحا أنها أكثرت في الشراب، وعادت إلى المنزل ونسيت وجودنا، عدت إلى أعلى بسرعة، أيقظت زوجتي.

نزلت زوجتي وساعدتها في الدخول لغرفتها، وبقيت بجانبها طوال الليل، نزلت إليها بعد قليل للإطمان عليهما، طرقت الباب فأذنت لي زوجتي بالدخول، ما إن دلفت إلى الغرفة حتى وجدت مونيك التي كانت ما زالت تحت تأثير الشراب تقول لها: «إنك محظوظة بهذا الرجل، محظوظة جدا».

احتضنتها زوجتي، وقالت إنها ستكون على ما يرام، وإنها ستبيت بجانبها.

كان هذا قبل يومين من رحيلنا، فلم تفعل زوجتي شيئا، ولم أفتح معها هذا الموضوع مرة ثانية أبدا.

...

بعد عودتنا كان لدينا خبر سار يصحبه الكثير من التقلبات الجسدية غير السارة، قيء وغممان نفس، كان القادم المنتظر يفسح لنفسه مكانا في بطن الأم، رغم أن له مكانا محجوزا في قلبينا.

في وسط كل هذه التغيرات لاحظت شيئا، لقد خبت زهرتي، و اقتلعت فراشتي جناحيها.

عادة؛ تأتي النذر قبل الحدث، ليس شرطا أن تكون ملاحظتك التغير هي أول بادرة له، لذلك عصرت فكري وذاكرتي.

تذكرت فراشتي وهي ترسم في مونمارتر وتذكرتها وهي ترسم في الصندرة.

هي أكثر أريحية في الصندرة...

عيون الإعجاب في مونمارتر لم تكن صديقتها كما تخيلت، أن فراشتي كانت تحب أن تطير بدون أن يحدد أحد لها ذلك الغصن الذي يجب أن تحط عليه، ولا تحب أيضا أن تحلق ثم تحط على غصن اختارته لتنظر بعدها يمينا ويسارا لترى هل أعجب الغصن الذي اختارته الآخرين أم لا.

لذلك كانت تنطلق في الصندرة، ولا ترى هذه الرسومات لأحد، أسعدني أنها لا تعتبرني عينا دخيلة، عين تنتظر حكمها وترغبه أو تخشاه، هذه مرتبة لا يصلها كثير ممن يدعون أنهم شركاء العمر، تمنيت أن أعطيها هذه الميزة، تمنيت ذلك فعلا.

ذهبت فراشتي لتضع عند والدتها، عندما عادت كانت بانتظارها مفاجأة، كنا قد اتفقنا على تحويل غرفة شاغرة في الدور الأعلى إلى غرفة أطفال، لكني خالفت ذلك، وقسمتها إلى غرفتين صغيرتين.

غرفة للطفل، وغرفة بنفس تصميم صندرة مونيك، وضعت فيها مرسما صغيرا لها، ومهدا صغيرا لابننا، وكسوت أرضيتها بنفس نوع الخشب الذي حرصت على أن يكون قديما وليس جديدا، وهكذا أصبح لديها متسع لروحها داخل المنزل، أنا أحبها وأحب روحها، وأحب أكثر أن يكون ذلك الانطلاق أمامي ويجب أن أحتفظ به في حيز يجمعنا.

في هذا الحيز تعلم ابننا أن يمسك فرشاة الرسم قبل أن يمسك القلم.

...

«امشِ في طريق شغفك خطوة»... قلتها لها و أنا أحفزها على العودة للرسم... كما قالتها لي بصيغة أهون عندما تركت ركوب الدراجات النارية: «يكفي أنك مشيت في طريق شغفك خطوة».

شغف لا يحملك على جناحيه، ويطير بك فور أن تضع قدمك على أول طريقه ليس مقدرا لك أبدا... وقد كان هذا شغفها... كانت تحب الرسم فقط ولا تحب بيع أو عرض لوحاتها، اختارت أن تبقى الهو اية هو اية بلا شيء ينغصها.

كانت فرحتها بالمرسم غامرة... قضينا فيه أياما رائعة، فراشتي ترسم و أنا أشاهد، لم أعد المشاهد الوحيد الآن، كان طفلنا يسكن عندما يراها ترسم، وكنت أسكن كالأطفال أنا أيضا، رسمت لوحات كثيرة لم تبعها أبدا، الموت في بلدنا قيمة مضافة للفنان، هو فنان ممتاز، لكن الموت كما اكتشفت لاحقا يعطيه ميزة الانتهاء، ميزة الندرة، بعض جامعي اللوحات والتجار طلبوا شراء بعضها فقط لأن من رسمتها توفت، علها تشتهر، خاصة بعد أن أقام بعض الفنانين حفلا لتأبينها، و أنشأ نادي راكبي الدراجات النارية جائزة باسمها.

لكني رفضت، فكل لوحة كانت تحمل جزءا من روحها لا أقدر على فر اقه أبدا.

الرسالة الثالثة

أم أربعة وأربعين

عادت الممرضة وهي تحمل باقة الورود اليومية، ولم تحاول أن تخفي ابتسامة ساذجة، فقد وصلت اليوم باقة الورود ومعها الظرف الغامض المعتاد، فتحت الرسالة لأجد الورقة مكتوب عليها رقم «44» فقط.

قدحت فكري كثيرا لأتذكر شيئا فاصلا حدث في عامي الرابع والأربعين، أو ارتبط في حياتي بهذا الرقم، ربما كان رقم المنضدة التي جلست عليها أنا وهذه المعجبة المجهولة في أول لقاء بيننا، ربما تكون رقم الرحلة التي سافرنا فيها معا، فعادة ما تتذكر النساء أشياء نعجز حتى عن إدراك أهميتها...

خطر لي أنه ربما يكون سنها الآن أو وقت تعارفنا وهي تحاول أن تجعلني أخمن من هي، أو ربما يكون سني وقت تعارفنا، ربما أكون قلت لها إنها أفضل ما حدث لي في عامي الرابع والأربعين، لا أدري، على كل حال إن كانت تعتقد أنها تستطيع بحيلة مثل هذه أن تشغلني بها فهي بالتأكيد لم تعرفني بما فيه الكفاية...

في النهاية لم تفلح جهودي القليلة إلا في تذكر حكاية طريفة قرأتها في رواية عالم صوفي.

يحكى أن نملة كانت تجيد الرقص، وكانت حديث الغابة كلها، يتجمع حولها كل الحيوانات ليروا رقصها الممتع، إلى أن جاء يوم بزغ فيه نجم أم أربعة وأربعين، كانت تجيد الرقص بكل قوائمها، وكانت أفضل بكثير من النملة، فاجتمعت الحيوانات حولها وانصرفوا عن النملة، قررت النملة أن تكيد لغريمتها حتى تزيحها من طريقها، ولأن هذه النملة موهوبة وتدرك معنى الموهبة، فإنها بعثت لغريمتها رسالة تحييها على رقصها وتمدحها، ثم سألتها سؤالا خبيثا.

سألتها هل تحافظين دائما وأنت ترقصين على نفس العدد من القوائم اليمنى واليسرى مرفوعا حتى لا يختل توازنك وتسقطين.

لا أعتقد أن هذه الأم أربعة وأربعين المسكينة رقصت بنفس البراعة مرة أخرى...

لقد حضرتني هذه القصة عندما أصر جدا ابني على أن نذهب به إلى مكان لتعليم الرسم بعد أن اكتشف موهبته الموروثة من أمه، بالطبع في الرسم، لكن على عكس المتوقع لاحظت أن رسومات ابني بدأت تسوء جدا، هنا كان علي أن أختار هل أنمي موهبته بتركها على حالها أم أئدها بتعليمه قواعد وأصول الرسم، فقد يفسد التعليم الموهبة أحيانا.

وقد اختار ابني بعد ذلك أن يصقل موهبته بالدراسة، لكن بعد أن كان قد تأكد من موهبته، والآن هو يدرس الرسم في باريس.

لكن هذه الحكاية رافقتني كثيرا في الحياة، فهناك الكثير من الأشياء التي يجب أن تستمتع بها دون تفكير، لأن جمالها في عفويتها.

وكان الحب في رأيي أولى هذه الأشياء.

إنه لم يخلق ليخضع لقواعد، بل إن الحب لم يخلق لتتحكم به.

فهناك مغزى لأن نربط الحب بالقلب، فالقلب هو العضلة الوحيدة في جسدك التي لا يستطيع عقلك التحكم بها، إذا بدأت التفكير انتهى الحب.

بقى السؤال عن قوة القلب والعقل يشغلني طيلة هذا اليوم، أعادني مرغما إلى كل علاقاتي ومغامراتي السابقة، أعتقد أنك تعرف كل هذه المغامرات، لذلك لست بحاجة لسردها.

ما أعتقد أنه يجب أن يبقى في ذهنك أننا استعملنا دائما مبدأ الفصل بين السلطات.

ذلك المبدأ التشريعي العتيد، لأن سلطة القلب والعقل لا يجب أن يجتمعا في رأي واحد، فهكذا خلقنا، فكما قلت لك سابقا أن القلب هو العضلة الوحيدة في جسم الإنسان التي لا يستطيع العقل التحكم بها، والعقل هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع القلب التحكم فيه، لذلك فإن تقرير من يتولى القيادة هو أمر يرجع لك وحدك.

استقل

قالتها بهدوء، وهي تنظر في عيني مباشرة.

كنت جالسا على الأريكة، وهي مستلقية حتى جذعها على الأريكة، وبباقي جسدها تواجهني.

نظرت في عينيها، كانت تحاول طمأنتي.

لم تكن تدرك أن عينيها هي جل ما أخشى، أن تخبو لمعة إطار عينيها الذي يحيطني ومنه أستمد قوتي.

لا تجعلهم يسرقون روحك.

استقل، ولا تخش شيئا.

اعتدلت، جلست على الأريكة، وجذبتني لنتبادل الأدوار.

سكنت قليلا على صدرها ثم اعتدلت.

أحاطت وجهي بيديها، ولفت رأسي إليها.

استقل، كررتها مرات عديدة.

كنت قد عانيت كثيرا في عملي في الفترة الأخيرة من المكائد والصراعات، الغريب في الأمر أن هذه المكائد لم تكن تجلب نفعا على

من ينصبها، وتلك الصراعات كانت بلا طائل، صراع ومكائد من أجل الصراع والمكائد فقط، رويدا رويدا؛ أصبحت أرى بيئة العمل تشبه مجموعة من الكلاب بلا عظمة يتصارعون عليها، أفهم أن تتصارع الكلاب على عظمة، لكن عندما تنعدم المنفعة تظل الكلاب تنهش لحم بعضها، في هذا العمل كانوا ينهشون لحم بعضهم ثم يلقونه بعيدا ولا يأكلونه.

لم يفلح الاعتزال، ولا المواجهة.

استقل يا حبيبي.

ذهبت إلى العمل اليوم التالي في موعدي، وضعت استقالتي على مكتب المديروعدت إلى المنزل.

عدت لأجد ضيوفا في منزلنا، لقد تم ترتيب كل شيء.

بسرعة تحسد عليها، أو أن الفكرة كانت مكتملة برأسها، ولكن لم تفصح عنها.

أجرنا الفيلا لعائلة دبلوماسي أجنبي، تمرد على السكن في أحياء وسط البلد الر اقية المزدحمة، أو تمردت زوجته على الأرجح.

قضينا يومين بعدها نجمع حاجياتنا الشخصية في غرفة التخزين في الجراج، وباقي الأشياء وضعناها عند والدتها.

حسبت أننا سنذهب إلى إحدى المدن الساحلية لقضاء عطلة صغيرة.

ولكن زوجتي فاجأتني بأننا سنترك ابننا ونسافر، سنفعل مثل ما يفعل الغجريون الإلكترونيون الذين قابلت بعضهم في أسفارنا العديدة، أناس لا يحتاجون إلى الذهاب إلى مكتب، يعملون من على الإنترنت، لا يختلف أن يعملوا من أي مكان في العالم، وهكذا استقلت في أول الأسبوع، وكنا على متن طائرة إلى بالي في نهايته.

توقفنا أياما قليلة في كوالالمبور أولا.

لم نأخذ معنا أي حقائب، شركة الطيران الداخلي هناك لا تسمح إلا بحقيبة ظهر واحدة لا تزيد على سبعة كيلو جرامات، لاحقا علمت أننا نستطيع اصطحاب شنط أخرى، ولكن بمقابل إضافي.

قضينا أياما جميلة في كوالا، قضينا معظمها نوما وكأننا نستريح من تعب رحلة الاستقالة ونتأهب لخوض مغامرة جديدة.

وصلنا بالي أخيرا، ويا ليتنا لم نصل.

...

بالي تبدو لأول وهلة ولآخر وهلة كمعبد كبير.

البيوت الملونة بالبرتقالي ولون أسود غريب كأنه أسود ضبابي، والمعابد الصغيرة الموجودة في كل البيوت بلا استثناء، عرفت بعد ذلك أنها معابد هندوس، وليست لبوذيين، لكنها ظلت بالنسبة لي كذلك.

تماثيل الآلهه منتشرة في كل مكان، في مدخل كل بيت، وفي كل زقاق، يغطون نصفها الأسفل بقماش لأنهم يؤمنون أن لها روحا.

المطار يحمل ثلاثة أسماء نيجورا راي، أو دنباسار أو بالي، مع الوقت أصبحت أقول المطار فقط، لأنه المطار الوحيد في الجزيرة، وصلنا حوالي العاشرة مساء، ثاني محطاتنا الآسيوية، تمطر منذ لحظة وصولنا، سائقو التاكسي يساومونا كالمعتاد، اتفقنا مع أحدهم و انطلقنا، طلبت منه أن نتوقف في الطريق لتغيير العملة، غيرت مئة دولار فأعطاني الرجل مليون وأربعمائة ألف روبية أندونيسية.

أصبحنا مليونيرات!

أعطيتها النقود و أنا أضحك، أخذت تتعرف عليهم وعلى الأشخاص والمعالم المرسومة عليهم.

الطريق كان قصيرا، عندما وصلنا حاول السائق أن ينزلنا في مكان بعيد قليلا لأن الفندق في طريق ضيق جدا، ولكننا رفضنا، فأوصلنا إلى باب الفندق، الطريق كان ضيقا بالفعل، لكن هكذا كل طرق بالي كما اكتشفنا فيما بعد.

الجو كان مختلفا بالتأكيد، الحواري والأزقة الضيقة، الدراجات النارية الصغيرة في كل مكان، فرق شاسع بينها وبين ما تعودنا عليه في أسفارنا لأوروبا وأمريكا، العامل المشترك الوحيد هو أنك تجد الجمال في كل مكان، في كل زاوية.

استقبلنا (يومان)، رجل على مشارف العجز لكنه يحتفظ بقوة الشباب، قصير القامة، طيب الملامح، قادنا إلى الاستقبال، المكان بالخارج معتم جدا، وبالداخل أيضا كما اكتشفنا بعد ذلك، زالت فرحة الملايين الأندونيسية عندما وجدتني أدفع تسعمئة ألف نظير الإقامة لمدة أسبوع واحد فقط.

قبل أن أدفع سألته إن كان يمكننا الإلغاء في أي وقت إذا وجدنا منزلا مناسبا، فأخبرني بالإيجاب.

استرحنا هذه الليلة واليوم الذي يليها، حتى الأكل طلبناه بخدمة التوصيل.

في اليوم الثالث صحوت مبكرا، ذلك الصداع النصفي الناجم عن الطيران المتواصل، والمهدئات التي أتناولها لترويضه يحدثان ثقبا في معدة نومي، أنام بدون أن أشبع، و أتقلب في ليلة واحدة عدد تقلب أهل الكهف في أيامهم كلها، وفراشتي لا تصحو مبكرا أبدا، نزلت

للتريض قليلا، ويا ليتني ما فعلت، واجهتني لعنة حوانيت المساج المنتشرة، كثير منهم يعرض خدماته وهذا مقبول جدا، لكن الكثير يرتص أمامه فتيات في قمة الجمال، ويعرضون خدماتهن، ولكن من قريب، قريب جدا، بعضهن يحتضن يدي وهن يحدثنني، وبعضهن يلمسن يدي بنعومة مفتعلة، لعنة تطاردني في الطريق إلى الشاطئ.

أخبرتها عما حدث معي.

في اليوم التالي استيقظت مبكرا، نزلت معي للتريض.

تثق في، نعم بالتأكيد.

لكن عندما تكون النزوة بهذه السهولة كان يجب أن تقلق.

لم يقتربن مني هذه المرة، عرضن المساج فقط، ولكن من بعيد.

جلسنا على الشاطئ، قلت لها بدون مناسبة وبطريقة أقرب إلى إلقاء عبد الفتاح القصري: الواحد حس إنه ماشي في حما واحدة ست.

قلتها بكل سخافة، كعادة الرجال الشرقيين في إفساد أي لحظة رومانسية بدعابة سخيفة، والسخرية من قوة إناثهم حتى لا تمترئ، عموما قلت الشيء الذي أحسست به بآخر طريقة كان يمكن بالفعل أن تعبر عنه.

لكني كنت أتصرف كمن يحمل حملا من العرفان لزوجتي لا يمكن لكرامة الشرقي أن تحمله.

...

«أنا محضرالك مفاجأة على فكرة، إحنا معزومين على الغدا النهارده.»

«عند مين، إنتي لحقتب تتصاحبي على حد هنا.»

التفتت نفس اللفتة التي أحبها، تلتفت بجسدها وتبقي عينيها موجهة إلي مع إيماءة ساحرة عند غروب عينيها عني، ولم تجب.

المفاجأة كانت مونيك، كانت قد تركت مونمارتر وباريس كلها وجاءت إلى هنا لتفتتح متجرا لرسم التاتو.

لم أكن أعلم أنهما ظلا على اتصال كل هذه المدة، بل أن صداقتهم توطدت كثيرا، بدا ذلك واضحا من كلامهما ومعرفتهما بأدق التفاصيل عن حياتهما.

أرتنا مونيك المتجر واستاذنتنا أن ننتظر قليلا حتى موعد الإغلاق للغداء.

ذهبنا بعد ذلك إلى بيتها، البيت كان مفاجأة، يقع في شارع عادي لكنه من الناحية الأخرى يطل على غابة شجرية جميلة، البيوت والطبيعة هنا مبهرة.

أشارت إلى كنبة في أحد الأركان وقالت: «لدي دائما كنبة لصديق أو عابر سبيل، إن لم تكونا نسيتما».

ضحكت و أنا أتذكر أيام الكنبة الكئيبة في باريس، ولكنها كانت أجمل أيام حياتنا.

عموما، فهمت الآن لماذا أتينا إلى بالي تحديدا.

لسبب غير مفهوم، بقينا في الفندق بعد الأسبوع أسابيع.

وجدنا منازل جميلة، لكن لم نستأجرها...

سيطر علينا إحساس متناقض... إحساس أننا نستطيع، نستطيع ألا نفعل شيئا.

إحساس باللاشيء، تبعثه بالي في أوصالك من أول لحظة، بالهللي بللي، كما كنت أقول لحبيبتي دائما عندما أصفه.

لم نرتد أي شيء مما جلبناه معنا، اشتريت تيشرت بلا أكمام مكتوب عليه كلمة بالي بأكثر الألوان هللي بللية في العالم، واشترت هي ست فساتين مزركشة بألوان عجيبة، ترتديها كل النساء هنا تقريبا، كل السائحات على الأقل، عندما قمنا بوزن الفساتين لم يتجاوز الستة مجتمعين كيلو جراما واحدا.

ولم نرتد أي شيء آخر سواهم، كان هذا انعكاسا من بالي علينا.

وكان (يومان) الطيب ذو الضحكة البريئة يسألنا عن وجهتنا كل يوم، ويسألنا عن ما ننوي فعله، ثم يسألنا عما فعلنا عندما نعود.

تأبطت ذراعي بعد أن عبرنا الممر الضيق جدا بجانب حمام السباحة وضحكت على السلم وهي تقول: (يومان) محسسني أني قاعدة عند خالتي في بالي، مش قاعدين في فندق.

وهكذا مضت إقامتنا في بالي في الفندق الصغير الذي أحببناه ولم نجد حاجة لتغييره.

الرسالة الرابعة

كانت فارغة

أنا أكره أن يوقظني أحد، إن هذا يحدث اضطرابا في يومي كله، حتى لو كان من يوقظني هو المنبه الذي حددته بيدي، أحب أن أستيقظ بكامل إرادتي، لذلك فقد عودت نفسي قديما أن أستيقظ قبل المنبه والآن عودت نفسي أن أستيقظ قبل قدوم خدمة الغرف بطعام الإفطار، صحيح أني كنت أمضي الوقت الفاصل بين استيقاظي وقدوم الإفطار في سريري، إلا أن فكرة أن يجعلني أحد أبدأ يومي على غير رغبة مني كانت تستفزني.

تناولت الإفطار... اليوم تغير الإفطار، واضح أنهم ملوا من عدم رغبتي في التغيير وعدم اعتراضي على الطعام، فقرروا أن يغيروا هم بأنفسهم، اصطحبت الممرضة الورود اليوم وهي قادمة لتعطيني الدواء، وضعت الورود بجانبي وأعطتني الرسالة.

انتظرت أن أفتحها أمامها، لكني لم أفعل، ومددت يدي لآخذ الدواء، خاب أملها في سبق صحفي، ربما سهرت طوال الليل تفكر في شكلها وإحساسها عندما تروي لزملائها ما في الرسالة، لكني لم أرد أن أشبع عندها هذه الرغبة، لأني تعودت أن إيقاف الأشياء من بدايتها أفضل من تركها تستفحل، تخيلت أن الممرضة ستأتي كل يوم وتفعل نفس الشيء، وتأتي زميلتها من بعدها لتفعل ذلك أيضا...

إن الانسان بطبعه يميل إلى تحويل أي تنازل يحصل عليه من أحد إلى حق مكتسب لا يجوز حرمانه منه، لذلك فأن تحرمه من البداية مما ليس حقا له أفضل كثيرا.

اعترف يا عزيزي أن ذلك لم يكن مبررا، و أنه تضمن إحراجا لي ولها، لكن أنا ببساطة لم أتوقع ما يوجد في الرسالة، والإحراج الذي أعلمه أفضل بكثير من إحراج أتفاجأ به.

فتحت الظرف بعد قليل وكان مكتوبا على الورقة هذه الكلمات.

(كان) فارغا.

آه يا صديق المراهقة، لو تعلم كم يجب أن أعتذر لك...

لقد كنت تخاف من أن تكون مثل (كان، فكان فعل ناقص، لا يحمل فعلا في ذاته، كما أنه فعل لا تتم فائدته بفاعله فقط، (كان) وحدها فارغة من المعنى، تعطي دليلا على الوجود فقط، ولا تحمل فعلا في ذاتها.

حتى النحاة عاملوا الفعل (كان) على أنه كلمة، فبدلا من أن يقولوا كان وإخوته قالوا كان وأخواتها.

صحيح أنها تنسخ الجملة وتحدث فيها أثرا إعرابيا، لكنها تبقى بلا معنى بدون جملة كاملة.

أعتذر لك يا صديقي فقد كنت (كان) بإرادتي، كنت موجودا أنسخ جملا، أرفع و أنصب، لكن لم يكتمل لي معنى بدونها أبدا، كانت خبري الذي انقضى ومعه المعنى.

ألجمتني كان، حبست دموعي مرة أخرى، كنت أجهش بالبكاء ولا أبكي كعادتي، أطبقت على الورقة يدي، حاولت أن أهدأ فلم أفلح.

قررت النزول إلى الحديقة، لا أدري لماذا فعلت ذلك، لكنني أخذت جميع الرسائل في جيبي، أنا أعلم أنه مستشفى محترم، ولكنني لم أخف من السرقة، ولكنني تخيلت أن ممرضة اليوم لن تتقبل هزيمتها بسهولة، و أنا متأكد أنها لن تسرقني، إنها فقط تريد أن تعلم محتوى الرسائل، وربما صورتها بهاتفها المحمول، ونشرتها على جروب واتس آب المستشفى، هي لن ترتكب جرما كبيرا من وجهه نظرها باقتحام خصوصيتي، فمعظم الناس لا تعتبر ذلك خطيئة أصلا.

تمشيت قليلا في الحديقة قبل أن اختار مقعدا منعزلا وأجلس عليه.

كان المقعد منعزلا، لكن كان مواجها لأكبر مساحة من الأشجار في الحديقة، وبقيت ساكنا أحرك رأسي مع الأشجار... لم تؤثر في الكلمات كما توقعت، أذهلتني قدرتي على هضم الإحباطات سريعا.

أعتذر لك يا صديقي المراهق مرة أخرى فأنا لست أنت، لن أثور ولن أتأثر بهذه السهولة، دقائق وأعود للأماكن الفارغة مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن، وكأن حلما لم يضع ويندثر.

...

عدت بعد قليل إلى ثالثنا.

أعتذر لك عزيزي أنا.

فقد شغلت هذه المرأة المجهولة وأطياف صديقنا المراهق تفكيري عنك في الأيام الثلاثة الماضية، لقد قطعت علينا خلوتنا لكنها ربما كانت فرصة لتذكر بعضا من كلمات الماضي، تلك الكلمات التي كونت جزءا من وجداننا، وشاركت في توجيه أفكارنا، ولا أنكر أنه يسعدني في نفس الوقت أني تركت هذا التأثير على امرأة تحاول أن ترد لي غموضي بلعبتها هذه.

حسنا، أنا لا أرغب في إعطائها اهتماما بمحاولة معرفة من هي، فلقد عرفنا الكثير من النساء يا عزيزي، لكن أيا منهن لم تفكر أن تزورنا في المستشفى رغم علم بعضهن، لقد هجرتنا الحبيبات وعاملتنا العشيقات كما كنا نعاملهن، وهذا خيب ظن زملائي في رحلتهم الاستكشافية، فالأصدقاء لم نجد لهم مكانا وسط زحام الحياة وميلنا إلى الهدوء، إلا أن الرسائل الغامضة أصبحت مثار الحديث في المستشفى، أراها في نظرات الممرضات والابتسامة الساذجة التي ترتسم على وجوههم عندما يروني، أنا بلا شك شخص غريب وغامض بالنسبة لهم، وهذا يثيرهم، فهم قد تعودوا على أنماط من المرضى لم يجدوني أخضع لأي فئة منهم.

إذا كان هناك شيء يجب أن تتعلمه من هذا الدرس هو أن الغموض شيء جيد، الناس عامة والسيدات خاصة ينجذبون لكل شخص غامض.

إن الاختلاف ميزة يجب ألا تفقدها أبدا...

ليس ذلك تعجرفا، فذلك المفهوم لم يدفعني أبدا إلى التعالي على الناس.

لقد كنت هنا مختلفا من وجهة نظرهم، فأنا أقضي أيامي وحدي، حتى أنهم عرضوا على أن أخرج لأجلس معهم في إحدى جلسات السمر، ولا يأتيني زيارات كثيرة، فلقد حرصت على ألا يعلم أحد بمرضي، فأنا أكره الشفقة الزائفة وأكره أن أكون ضعيفا.

ربما لهذا السبب اخترت تلك المستشفى البعيدة حتى يصعب على الجميع الوصول إليها في هذا الزحام الخانق الذي أصبح روتينا يوميا لحياتنا، فلقد أردت أن تكون هذه الأيام خلوة لنا؛ أعدك فيها للقيادة، فأنا كربان لهذه السفينة يهمني أن تتعلم كيف كنت أبحر بها قبل أن أسلمك قيادتها، وأعلم أنك ستواجه بحارا أخرى يجب عليك أن تستعد لها.

آمل فقط أن تعطينا هذه القرصانة الغامضة وقتا لأنفسنا.

ضيق بلا مبرر

استيقظت اليوم و أنا أحس بضيق شديد، استغرقت وقتا قليلا حتى أتبين سببه، فعادة ما يسبق الإحساس استيقاظنا الكامل، أعتقد أن هذا دليل على أن الروح تستيقظ قبل العقل.

أدركت سبب الضيق بعد ثوان، لقد زارتني المرأة الغامضة في الحلم، جاهدت كثيرا لأتذكر ملامحها أو حتى أي دلالة عليها، لكني كالعادة فشلت، مما أصابني بالضيق فلقد تخيلت أنني عقدت صلحا مع عقلي الباطن عندما تقبلت مشاركته لي في لحظاتي الأخيرة أو سيطرته الكاملة عليها، و أننا أصبحنا أصدقاء، و أنه سيبوح لي بما يقصده بوضوح بعد ذلك، و أنه سيحدثني بلغتي ويظهرلي في أي وقت، لكن هيهات أن يتخلى المخادع عن سلاحه.

جلست على هذه الحالة قليلا و أنا ناقم على هذا الجزء الذي لا أعلم مكانه ولا أعلم تكوينه، ربما يكون خلايا خبيثة في المخ، ربما يكون خلايا فائقة الذكاء، ربما تكون أفكارا لا خلايا، أفكار المعية لم يستوعبها عقلي فأخذت تلاعبني لعبة القط والفأر.

عموما؛ أحزنني خاطر أن هذا العقل الباطن يعلم من هي المرأة وعجزت أنا عن ذلك، وأحزنني أكثر أنه حجب هويتها عني.

الفراشات لا تشيخ

على تلك الأرجوحة ضحكت لآخر مرة.

تمتلئ بالي بمثل هذه الأرجوحة، معلقة على جزع شجرة أو على بناء من البامبو، أخبرنا راستا عنها، كانت ما زالت جديدة، ورخيصة جدا مقارنة بباقي الأرجوحات، اكتشفت بعدها أنهم يقدمون للسائقين قهوة مجانية طوال فترة وجودهم، ربما جعلها هذا تعرف بسهولة.

ذهبت أنا مع راستا وقالت هي أنها ستلحقنا بدراجتها، لكنها سبقتنا.

المكان مثل باقي الأماكن، لكن المنظر الخلفي مختلف، فهو يطل على بحيرة وليس على مدرجات مزارع الأرز مثل باقي الأماكن.

التقطنا صورنا داخل أشكال أخرى، قلب، عش طائر، مقدمة مركب، ثم ذهبنا للأرجوحة، ارتقت هي السلم أولا، بخفة فراشة لم تفارقها أبدا، ارتقيت بعدها السلم إلى الأرجوحة المعلقة، جلست و أبعدوا السلم، رجل يجلس على مدرج أمامي يلتقط الصور، رفضت هي كما رفضت أنا أن يصورنا أحد غيرنا، ابتسم الرجل، أفسح لها مجالا، أخذ يعطيني تعليمات لكي أتأرجح في مكاني، أو أقف، وقفت، وقفزت هي بخفة وأخذت تهز الأرجوحة.

ضحكت...

لأول مرة عندما تداعبني بمثل هذه الأفعال، عادة أبتسم فقط أو امزج ابتسامتي بضيق طفل صغير، لكني في هذه المرة ضحكت ضحكة عذبة طويلة.

حسبي أن آخر ما رأته مني هو ضحكتي، التي استمرت حتى ركبت أنا مع راستا وركبت هي دراجتها عائدين إلى الفندق.

المنظر كان جميلا ذلك اليوم، كنا نهبط الجبل مارين بغابة القرود، أغلقت زجاجي فهذا الطريق مليء بالقرود، وأرخيت رأسي مستمتعا بالمنظر الخلاب لمزارع الأرز والبحيرة الذين يتناوبون علينا مع لفات الجبل، والرطوبة الكثيفة جعلته يبدو من نافذة السيارة كلوحة خلابة تذوب ألوانها.

إلى أن تسلل ذلك الضباب الأسود القاتم إلى المشهد فجأة، شهقت كأنه تسلل إلى صدري فكتمه، تجمدت لثوان بينما خفض راستا من سرعته فجأة، الفرملة الفجائية دفعتني للأمام وأعادني حزام الأمان بطريقة جعلتني أبدو كمن يعطوه صدمة كهربائية لإنعاش قلبه.

دينا، صرخت.

مددت يدي إلى هاتفي بسرعة، نحن نتشارك حسابا واحدا على كل أجهزتنا، يمكنني معرفة مكان هاتفها المحمول في أي وقت وهي كذلك، اللعنة، لا تغطيه على الجبل.

نظرت إلى راستا، لم أحتج لأن أشرح مخاوفي.

المشكلة أننا لا نعرف أي طريق سلكت، فقد سبقتنا في الصعود، هذا يعني أنها سلكت طريقا مختصرا لا نعرفه، أو لا يمكننا السير فيه بالسيارة.

تنحى راستا بالسيارة جانبا، سأل شرطي مرور و اقف على رأس طريق إن كان هناك إبلاغ بحادث في أي مكان، أجابه الشرطي بمكان حادثين، أحدهما بعيد جدا عن طريقنا إلى الفندق، والآخر في طريق متقاطع، تحرك سريعا، لكني أخبرته أن يتمهل، الفقد هو ما أخافني، إن حدث لها مكروه، أو إن حدث لي مكروه، سأفقدها.

خلف شرخ

يطبخ لي عقلي المواضيع بصورة باهرة!

في البداية يركز على مشهد ما ويعيده ويكرره علي، ثم تتوالى المشاهد بنفس الطريقة، ثم تختفي كلها في غياهب عقلي.

ثم يحدث شيء ما يجلب إلى مشاهد مختارة دفعة واحدة.

غالبا ما تكون مشاهد غير مترابطة ولا يجمع بينها في نظري أي رابط مشترك، لكن عقلي يبهرني بإيجاد ذلك الرابط و إيجاد تفسير مدهش، المختلف هذه المرة كان وجود رابط قوي، كل المشاهد هنا كانت لامرأة واحدة، وحدثت في مكان واحد، في شارع الشانزليزيه.

في المرة الأولى توقفت قليلا لألتقط أنفاسي و أتأمل في المعمار البهي لشارع الشانزليزيه، وتفاصيله الدقيقة، جاءت وقفتي أمام مكتب الخطوط الجوية الإيرانية، نظرت إلى الموظفة الجالسة هناك، ولكن نظرتي لها كانت مختلفة، كانت نظرة من خلف الناظرين، نظرة خلف العيون الناظرة، تلك العيون التي تلقي سؤالا واحدا، ماذا تفعلين هنا ؟ ماذا تفعل الخطوط الجوية الإيرانية هنا، ولأن الخطوط الجوية لن ترد، كانت العيون توجه سؤالها مباشرة إلى السيدة الجالسة، وكانت بدورها تتحاشى النظر إلى النافذة العريضة على الشارع، ومن ورائها العيون ذات السؤال المكرر.

كنت في الحقيقة أستغرب السؤال الذي تحمله الأعين جدا، فالإمام الخميني عاش 117 يوما، آخر أيام المنفى، و أيام انتصاره هنا، في قرية نوفل لوشاتو على بعد أربعين كيلومترا فقط من الشانزليزيه، ووجه الخميني من هنا رسائله الصوتية الحاسمة إلى مؤيديه، حيث كانت تسجل على أشرطة كاسيت، ثم تذاع خلال مكالمات هاتفية إلى إيران، ثم تنسخ وتوزع على المؤيدين، كل ذلك تم من هنا، من باريس، بل أنه عاد إلى إيران على متن طائرة للخطوط الجوية الفرنسية لتبدأ بعودته عشرة الفجر، وتتغير إيران إلى الأبد.

في زيارات لاحقة لباريس كنت أرى نفس المشهد متكررا بكل تفاصيله ما عدا آخر مرة.

هناك شرخ حدث.

في إحدى الاحتجاجات التي اجتاحت الشانزليزيه انهال و ابل من الطوب على واجهة الخطوط الجوية الإير انية، فأحدث شرخا كبيرا في الزجاج المصفح بالتأكيد.

اقتربت هذه المرة، نظرت إلى السيدة الجالسة فوجدتها أكثر راحة وأكثر حرية؛ تتحاشى النظر إلى النافذة كعادتها لكنها أكثر ارتياحا.

أوصل لي عقلي أني أصبحت هكذا، أواجه الدنيا محتميا خلف شرخ يخيل لي أني لا أرى الحقيقة، أو أن الحقيقة لا تر اني، وهذا يطمئنني.

أحيانا يخيل لي أن هذه الحقيقة مزيفة، لو كانت حقيقة لاخترقت الجدار الزجاجي ونفذت إلي، ولكن قوتها لم تكف سوى لإحداث شرخ فقط، حتى ذلك الشرخ لم تستطع أن تزيده أو تنفذ من خلاله مع الأيام، أو أن هذا الشرخ يعد بمثابة تعادل، بين هروبي وبين الحقيقة.

وهكذا مضيت في نكراني...

أحتمي خلف شرخ...

...

أنا لا أريد أن أتذكر.

وإن كان بإمكانك أن تنسى، انس يا عزيزي.

أحتفظ حتى الآن بصورة ضبابية لما حدث، صورة لم أحاول أبدا تنقيتها... صورة في الليلة السابقة لرحيل فراشتي، و أنا أتأمل التاتو الذي رسمته مونيك لفراشتي، لروح تفارق الوجه من الوجه كله، انبعاج روح تخرج من كل أنحاء الوجه، روح تجاهد للخروج وكأنها على وشك الانفجار.

أتذكر خروجي من جسدي وقت رأيتها مسجاة على جانب الطريق، عشت هذا الموقف كأنه حلم، رأيتني من نقطة خارج جسدي، رأيت وجهي بنفس شكل التاتو، الفرق أن عيني كانت المنبعجة، ودموعي هي من انحسر.

لا أريد أن أتذكر أكثر من ذلك، ربما كان ذلك ما يمنع دموعي، ولكني لن أذكره أبدا، فلتبق الدموع، لا ضير في ذلك، لكني لا أريد أن أتذكر أبدا.

نحن نمتلك نفس الذاكرة يا عزيزي...

إذا أردت أن تتذكر تذكر، ولكن لا تقل أني لم أحذرك.

عصر ومخاريط

استغرقتني الآن فكرة الكشف عن هوية هذا العقل الباطن، أعلم أنها حيلة نفسية دفاعية لمنعي من تذكر مشهد النهاية، سأوجه الآن تفكيري إلى هذا العدو الكامن بين أضلعي، فبدلا من أن يشغلني بألاعيبه ويطبخ لي الأفكار، قررت أن أشغل نفسي بمحاولة الكشف عن ماهيته، فوجدتني أفكر أن هذا الباطن هو مجرد استرجاع للأحداث التي مررت بها، ومرتبط بها تماما مثل الصورة والخيال.

Image and imagination.

فالخيال في معظم أحواله هو استدعاء أو استنساخ أو دمج لصور حقيقية حتى أن كلمة الخيال في اللغة الإنجليزية هي صيغة مبالغة من أصل كلمة صورة.

أو كان مناقشة يجريها العقل للسيناريوهات المحتملة لكل موقف، فكل شيء قابل للفهم بأكثر من طريقة، ربما اختزن عقلي السيناريوهات الأخرى المحتملة ليناقشها في الليل ويعدل بالتالي مسار فهمي للأحداث بإرسال إشارات خفيفة، أو أن عقلي يجري ليلا حسابا للمخاطر التي أهملتها بتبني سيناريو محدد لحدث في حين أن عقلي أدرك بعد المراجعة أن هذا السيناريو سيقود لكارثة فأرسل لي تحذيرا شديدا في صورة كابوس مفزع.

لكني لم أر هذه الأشياء أو على الأقل أاعتقد أني لم أرها، فشبكية عين الإنسان تستقبل الصور عن طريق عضوين حسيين عصى ومخاريط، حسنا ربما كانت وظيفة هذا الجزء الباطن من عقلي تحليل ومتابعة ما تراه العصى، ذلك لأن عقلي الواعي يركز على ما تراه المخاريط فهذا بطبيعة الحال مجال تركيزي الأساسي والعقل الباطن يسترجع ما رأته العصى وهو يقع معظم الوقت على الهامش.

لكن لا أعتقد ذلك فحتى ما على الهامش لن يبقى كذلك إذا أحسست بأهميته، فتلقائيا ينتقل تركيزي إليه أو ربما لا ينتقل تركيزي إليه لأني لم أحس بأهميته وقت حدوثه، فتقوم ذاكرتي بتذكر هذه الهوامش ليحللها عقلي فيما بعد.

بهذه الملاحظة أعتقد أنه قد لا يكون هناك عقل باطن من الأساس وما يحدث أن لي عقلا واحدا له بؤرتي اهتمام، فعقلي يخزن مشاهد العصى ليناقشها في الليل بعد أن تزول كل المشاغل الرئيسية، ويقوم عقلي بفحصها، ثم يحتفظ منها بتلك اللمحات التي ظن أنها مهمة فقط.

استدعت تلك الفكرة فكرة أخرى قد تكون حلا للغز طالما حيرني، فكثيرا ما تعجبت من تداعي الأفكار داخل عقلي، إذ تبدو في بعض الأحيان أفكارا متتالية لا يربط بينها أي رابط منطقي، ربما تكون مشاهد الهامش هذه هي ما يجعل تتالي الأفكار غير مفهوم بالنسبة لي في كثير من الأحيان، فقد أفكر في شيء ويستدعي ذلك فكرة أخرى لا علاقة واضحة لها من قريب أو بعيد بالفكرة الأولى، لكن ربما كانت العلاقة موجودة في المشهد الهامشي الذي صاحب الحدثين

ولم أتذكر أنا طبعا ذلك، حملني التفكير في حياة أخرى يعيشها عقلي وحده في الليل إلى فكره أن تكون حياة كاملة لا أعلم عنها شيئا، أنها فكرة أخرى مجنونة.

لكن إذا ثبت صحتها فذلك يعني أنه ليس هناك امرأة مجهولة أصلا، لقد اختار هذا العقل الباطن أن يحاورني بنفسه، وما هذه المرأة سوى تغطيه لأفعاله.

حسنا، إنه بالفعل خاطر مجنون، لكن لا مانع من أن نضعه قيد الدراسة، فإذا كان هذا العقل يستخدم نومنا ليبعث لنا أفكارا، فما الذي سيمنعه من أخذ خطوة أخرى للأمام وأن يستغل نومنا ليحيا حياة أخرى.

حسنا، إن لكل حياة أثرا، وهذا شيء يسهل تتبعه.

لنر... فلنفترض أنه بالفعل من أرسل الورود، يجب عليه كي يرسلها أن يستخدم جسدنا، وأن يستخدم أيضا بطاقتنا الائتمانية... إذًا، هو يوهمنا أننا نيام ثم يستولي على جسدنا ليقوم بألاعيبه التي تعدت الحدود هذه المرة.

فتحت حاسوبي ودخلت إلى موقع البنك، وألقيت نظرة على حساب بطاقاتي ووجدتها خالية من أي نشاط مريب.

فكرت أنه ربما طلب هذه الزهور مسبقا.

فإذا كان العقل بهذا الخبث فإنه سيلعب دائما على الثغرات التي لا أتوقعها، فنظرت في حساباتي حتى التاريخ الذي عرفت فيه

أنني سأدخل المستشفى ولم أجد أيضا نشاطا مريبا، هنا استرحت قليلا.

فهذا العقل الباطن ما زال ضعيفا، فهو لم يستولِ على جسدي بعد، ولا يقوى إلا على إرسال إشارات ولمحات فقط، هذا جعلني أحس بنشوة انتصار زائفة، فأنا ما زلت متفوقا على هذا العقل الباطن لكني ما زلت أكرهه.

كان كرهي له هو ما جعلني أحس بزيف نشوة الانتصار، فإن تنتصر يجعلك ببساطة لا تهتم بأمر عدوك، بل في بعض الأحيان يدفعك إلى الشفقة على ضعف عدوك، أو أن تتجنب الحرب و أنت قادر على الفوز بها وتكتفي باتخاذ الموقف الأخلاقي الأعلى كما يقولون في السياسة، لكن أن تكره عدوك بعد هزيمته، يعني أن العلاقة بينكما لم تنتهِ بعد، لأنه ما زال هناك رابط بينك وبين عدوك الذي انتصرت عليه، لأن العلاقة بينك وبين غريمك كان ينبغي أن تنتهي فور أن تضع الحرب أوزارها، لكن الكره يمد هذا الرابط إلى ما بعد انتهاء المعركة بكثير، عموما فإن سبب كرهي هذه المرة واضح وصريح.

إن عقلي الباطن يعلم، أو على الأقل يملك معلومات ودلالات لا أعلمها عن المرأة الغامضة.

أنا لا أريدك يا عزيزي أن تعتقد أنني أحاربك أو أكرهك أنت أيضا مثل عقلي الباطن، فلا مجال لأي تنافس بيننا، فأنا ببساطة لن أكون موجودا حين تأتي أنت... و هذا يا عزيزي ليس انتصارا لأي منا، إنها سنة أجبرنا عليها هذا الجسد.

في المساء استسلمت رغما عني لتلك الحاجة الإنسانية البسيطة، الحاجة إلى صحبة، لم أدر سبب موافقتي على تلبية دعوة الممرضات هذه المرة، ذهبت إليهم في مكان تجمعهم، لم يزد طابع الجلسة في البداية عن جلسات نميمة السيدات المعتادة، وهي جلسات لا تتغير في أي طبقة شعبية كانت أو راقية، أن وسائلها فقط تتغير، ففي الأحياء الشعبية تجلس النساء على المصطبة أو في شبابيك الحارات الضيقة، أما في الطبقات الراقية فيتجمعون في النادي، وبدلا من أن يتحدثوا من البلكونات المتلاصقة يتحدثون في الهاتف.

هنا كانت جلسة نميمة في مستشفى راق منعزل، بالتحديد في غرفة رئيس التمريض، أي مستشفى هي منظمة منضبطة تخضع لنظام صارم بالنهار وإمبراطورية يتحكم بها الأطباء الشبان والممرضات والأمن في الليل، ناهيك عن الطابع الغريب لهذا المستشفى.

بدأوا الثرثرة العادية ولم يتوسعوا فيها لتشمل أي من المرضى عسى أن يضايقني ذلك، كالعادة لم يطل وقوفي بجانبهم أكثر من خمس دقائق ثم مللت وهممت بالرحيل قبل أن يبدأوا في محاولة استدراجي للكلام، عندها استوقفتني إحداهن قائلة إن الزهور لن تصل غدا لأن المتجر سيكون مغلقا، التفتت إليها فأردفت قائلة إن هذا ما أخبرها به فتى التوصيل، شكرتها وكنت حريصا على عدم ظهور أي انفعال على وجهي، لم يكن لدي شك أني كنت محور ثرثرتهم باقي السهرة... و هذا في الحقيقة يسعدني وطالما أسعدني، بل إنه في كثير من الأحيان يعطيك رهبة... كونك غامضا يجعل الناس تبني بينك وبينهم حاجزا يصعب عليهم تخطيه.

بقيت وحيدا طوال الليل

أنا أكره أن أقتني شيئا قد يزول، أكره حدوث شيء ثم اختفاءه، إن هذه الرسائل لم تكن أبدا مهمة، لكن افتقادها أمر سيء، ونقمتي على مرسلتها أكبر، فقد قطعت على خلوتي، وهي خلوة مهمة.

صحيح أني قضيت آخر سنوات عمري في خلوة، لكن كانت هذه هي الخلوة الأهم، ليس لذاتها بل لزمنها، فهي قد تكون الأخيرة، لقد حرصت على الخلوة معظم حياتي، أن تكون وحيدا يعني أنك غير مر اقب، وأن تكون تحت عيون الناس يجعلك بلا إرادة منك تتصرف على نحو يرضي الناس، أو على الأقل يجعلك تراجع تصرفاتك من وجهة نظرهم، أنه يجعلك أسيرا لهم.

أما عين الله التي لا تنام فقد جعلتني التربية السيئة لا أتذكرها إلا عندما أخطئ...

لم يرشدنا أحد إلى مناجاة الله، بل غرسوا فينا أن الله ير اقبنا عندما نخطئ فقط!

ترى ما كاسى

تفعل كل ما هو مطلوب منك بدون أن تعي، موجودا وغير موجود، بدون أن تبالي... هكذا كنت في فترة إنهاء الإجراءات، رأيت التابوت يصعد إلى الطائرة أمامي حاملا جسدها.

جلست في الطائرة، كانوا من اللطف بأن حجزوا لي كرسيا وبجانبي تركوا كرسيين شاغرين... فور أن أغلقت الطائرة أبوابها أتى رجل ليجلس بجانبي، سألني إذا كنت أمانع وأجبت بالنفي... سألني عن جنسيتي، وقلت إني مصري، ولم أحتج أن أسال لأعرف أنه أخي من السودان... اعتذر لأنه وجد نفسه محشورا بين سيدتين، اكتفيت بهز رأسي، وأعتقد أني نجحت في رسم ابتسامة مبتورة على وجهي...

أقلعت الطائرة، نظر إلى وقال ضاحكا: فارقنا ترى ما كاسى... اعتذرت له لأني لم أفهم ما قاله... قال إنهم هنا في ماليزيا يقولون شكرا هكذا...

أحسب أني نجحت مرة أخرى في رسم الابتسامة المبتورة، لكن بقيت الكلمة في رأسي: فارقنا ترى ما كاسى.

أعلم معنى الكلمة، ولكن ذلك المعنى الجميل ذا النطق الأجمل ظل يتردد بين الحين والآخر في داخلي بمعنى فارقنا الفرح، فارقتنا السعادة.

الخلود بين جدران ضيقة

استيقظت مبكرا اليوم وقررت التنزه في حديقة المستشفى، وكلي أمل في أن أحظى اليوم بيوم هادئ بلا مقاطعة، أصبحت تأتي في صورة رسائل من امرأة مجهولة.

في الطريق من غرفتي إلى الحديقة وفي الحديقة كان الكل يحمل لي نفس النظرة الخبيثة والضحكة الساذجة التي ارتسمت على شفاه الممرضة، انتقلت العدوى أو بالأصح انتقل الخبر إلى كل عاملي المستشفى والمرضى أيضا.

في هذه المواقف المربكة لا يحضرك انفعال محدد، إنه موقف غريب ومريب في نفس الوقت، موقف مثل هذا ينقلب فيه الميزان، في أحوالك العادية تشعر ثم تفكر بعد ذلك.

أما في المواقف الجديدة والمربكة مثل هذا أنت تحتاج إلى عقلك أولا ليفسر لك جوانب الموقف حتى تستطيع أن تحدد بماذا ستشعر: هل ستفرح، هل ستحزن، هل ستفتخر.

يقودني هذا إلى أسئلة حتمية: هل كنت دائما هكذا؟ هل قاد عقلك الطريق في كل المواقف ثم تبعه قلبك؟ وعلى أي أساس فهم عقلك الموقف؟ هل فهمه بناء على ما أمدته به الحواس؟

وفي هذه الحالة فإن فهمه للموقف يكون موضع شك، فالحواس تخدعنا كثيرا... نرى أشياء على غير حقيقتها، ونسمع أشياء خطأً أحيانا، ونذوق أشياء لنكتشف أنها في النهاية أشياء أخرى.

أو أن عقلك فهم الموقف اعتمادا على خبرات سابقة اكتسبها من موقف مشابه، وهنا يكون الفهم مرتبكا.

هل لو لم يتعرض العقل للموقف الآخر لما فهمت هذا الموقف بهذا الشكل؟!

هل لو تعرض لهذا الموقف المرتبك قبل الموقف الآخر كان سيفهمه بطريقة أخرى، هل وجد العقل ارتباطا وثيقا بين الموقفين أم أنه اختار الأقرب له انجازا للموقف.

إنه مربك فعلا أن تتعرض لموقف مربك.

في هذه الحالة عرفني عقلي أن الموقف هنا أنني أصبحت مشهورا في المستشفى، وهذه كما تعلم يا عزيزي أولى خطوات الخلود... فلكي تكون خالد الذكر يجب أن تكون مشهورا أولا، صحيح أن هناك استثناءات مثل رجل وجدوا هيكله العظمي بعد أربع آلاف من السنين أو رجل وجدوا نعل حذائه في بقايا بركان بعد عدة آلاف من السنين.

لكن الشهرة خطوة أولى يخطوها دائما من يسعى للخلود، وهو سعي غير مفهوم تختلط فيه مشاعر العجرفة والنقص معا.

العجرفة لأن من يسعى إليه يشعر أن حياة واحدة لا تكفيه، والنقص لأنه يحس بفراغ داخله لم تملأه حياته.

عموما لم ينجح عقلي في فهم العائد من الشهرة في مستشفى منعزل، هل سيأتي حفيدي يوما هنا ليخبروه عن شهرة جده، وهل سيخبره بأنها شهرة لا يد له فيها، أنها شهرة صنعتها رسائل من امرأة مجهولة، وأنها شهرة تولدت من نبضة إلكترونية تحولت إلى ورود على الجانب الآخر.

وهل سيتوقف خيال الناس عند هذا الحد، أم أن هناك مريضا بائسا سيسعى لكسر الشهرة بأن يرسل لنفسه ورودا هو أيضا ويجعلها تبدو من أكثر من امرأة، وربما يكونون وقتها قد اخترعوا تطورا جديدا لوظيفة المعددة، تلك المرأة التي تذهب لتقود مظاهر النحيب على الميت وهتافات الأسى عليه، لكنها ستكون فتاة جميلة أو امرأة مثيرة تأتي لزيارتك في المستشفى ليشعر الناس بأنك مهم، ثم تنكشف لعبة هذا العجوز ليصبح هو المأفون البائس الثاني، وأصبح أنا المأفون البائس الأول.

جلست على أريكة أستريح قليلا، وقد خطر لي الآن أن الخلود ليس بالضرورة في الشهرة، فهناك الملايين ممن استشهدوا من أجل أن تحيا بلادهم، وهم خالدون أكثر من القادة الذين نذكر أسماءهم.

نظرت إلى مبنى المستشفى أمامي لأتخيل أن عامل بناء بسيط أصبح خالدا ما دام هذا المبنى الذي ساهم في بنائه قائم، هناك عامل حديقة بسيط أصبح خالدا بقدر خلود هذه الشجرة التي زرعها، إن الخلود قد يكون خلود أثرك في الدنيا، ففي هذه اللحظة تخيلت أن خلود عامل البناء أكبر من خلود قائد روماني قديم خاض حروبا عديدة ولم يبق له أثر يُذكَر، لم يبق لهذا القائد إلا اسم فقط.

هل عرف أصحاب عربة التبن أن التبن المتناثر خلفهم سيوحي لأحد العلماء يوما ما ليسمي المجرة على اسم طريقهم.

إن خلود الأثر هو نوع من الخلود الذي فهمه الفراعنة عندما أقاموا آثارا لهم، إن عامل البناء كان يرى خلوده مثل خلود الملك، حتى لو لم يعرف أحد اسمه...

و هناك خلود آخر، خلود اللحظة... خلود صورة نلتقطها أو فيديو نصوره...

خلود مؤقت... خلود لحظة من حياة كائن يحلم بأن يخلد...

إن الخلود ويا للمفارقة هو إشباع لرغبة لحظية لدى الإنسان، يستوي عند في هذه النقطة من مات خالدا ومن مات يحس أنه سيخلد.

كلاهما عند لحظة الموت ظن أنه خالد.

كلاهما أشبع رغبته ثم ذهب.

جلست بجانبي على الكرسي امرأة لم أستطع تبين سنها، فقد أصبحنا لا نميز عمر السيدات وهن بدون مساحيق التجميل، وأصبحنا ننخدع في عمرهن عندما يضعون مساحيق التجميل، أحسب أنها تصورت أن جلوسها بجانبي كاف لإغوائي بالحديث إليها، أو تصورت أنها قطعت نصف الطريق بالجلوس جانبي وعلي أن أقطع أنا النصف الآخر و أبدا بالحديث، لكني لم أعلم في موقف كهذا في مكان كهذا ماذا يجب علي أن أستخدم كجملة افتتاحية.

هل أقول أنه يوم مشرق مناسب لإجراء عملية جراحية قد لا نخرج منها أحياء؟ أم أسالها عن فرص النجاة في عمليتها إن كانت هنا لتجري جراحة؟

أنا لم أخذل أبدا امرأة شجاعة، لكني هذه المرة قد أكون مجبرا، فأنا أيضا لا أريد أن أدخل في محادثة مربكة، كفاني إرباكا من مشاعر الصباح، وأنا هنا أقول مربكه عموما وليس في هذا الموقف بالتحديد، فقد سلمت منذ زمن طويل بأن المرأة كائن لا يمكن اكتشافه أو فهمه، لأن فهم أي شيء لا يعتمد فقط على ذكائك أو قدرتك على الفهم، بل يعتمد إلى حد كبير على قابلية الشيء للفهم، يعتمد على أن يتبع الشيء الذي تحاول فهمه نمطا أو ترتيبا محددا... وهذا ليس موجودا عند النساء...

لا نمط لتكتشفه... لا ترتيب تستطيع أن تبني عليه... لهذا يا عزيزي عليك أن تفهم أنه ليس واجبا عليك أن تفهم النساء أو أن تحاول إرضائهن، فهن يستعصين على المهمتين... افهم فقط أنهن كائنات أخرى عليك أن تجد طريقة للتتعايش معهن.

نظرت إلى ساعتي واستأذنت المرأة الجالسة بجانبي في الرحيل...

نسيت أن أخبرك أنها كانت مهذبة، واستأذنتني في الجلوس بجانبي... ربما كان علي ساعتها أن أبدأ الكلام مباشرة وأخبرها أنه من الجيد أن يكون لدي صحبة.

إن العقل يعطل الروح عن التحليق إذا أمسك الزمام... إنه يفكر كثيرا كأنه مئة عقل.

...

في طريقي إلى غرفتي تجاهلت النظر إلى كل من كانوا في طريقي، وهذا كأي فعل بشري لن يفيد إلا في تأكيد الناس لمشاعرهم تجاهك... فإن تجاوب الناس مع أي فعل بشري لا يعتمد على طبيعته، بل على رؤيتهم للشخص الفاعل، فمن أحب سيحب أكثر، ومن كره سيكره أكثر، ومن لا يبالي سيفكر أنه يجب أن لا يبالي أكثر.

كل أفعالك يا عزيزي ليست ملكا لك.

طرف الفعل معك، وطرف الفهم عند الناس!

...

كانت الممرضة المسؤولة عني أوسع الضاحكين سذاجة، ظلت تتابعتني بنظرها حتى اقتربت من الغرفة، دخلت لأجد مفاجأة لم أتوقعها، إنها باقة ورود جديدة، ورسالة جديدة.

إنها من متجر آخر بعيد، أن هذه المجنونة دفعت أكثر من ثمن الورود لتستطيع إرسالها إلى من هذا المتجر، ألم يكن من الممكن أن تنتظر للغد وترسل رسالتين.

أصابني حنق شديد على هذه المرأة، إنها لم تستأذني في اقتحام خلوتي كما فعلت السيدة اللطيفة التي جلست بجانبي في الحديقة.

لم أدر بأي حق اقتحمت هذه المرأة خلوتي، أتظن لأنها كانت في حياتي أن ذلك يمنحها الحق في المجيء والرحيل متى شاءت، إن كانت تظن أنني ممتن لها ولرسائلها العجيبة فهي واهمة.

لم أفتح الرسالة هذه المرة، فلست مجبرا على ذلك.

جلست على السرير أنتظر فحوصاتي الطبية اليومية، ترى هل يسمح لي المستشفى بأن أكتب على الحائط أني كنت هنا، كما يفعل المحبون الصغار عندما يتركون أثر حبهم على شجرة.

إن الأثر يخلد اللحظة، لكن...

هل دامت اللحظة؟!

هل لا زالوا معا؟

هل للأثر معنى الآن؟

هل للخلود معنى إذا انقطع وجوده؟

هل يعيش الخلود إذا انحصروجوده داخل جدران ضيقة؟

بالي مرة أخرى

طائرة، ثم بحث عن بوابة، ثم طائرة، ثم مطار آخر وبحث آخر عن بوابة، ثم طائرة أخرى.

بعد قليل من الإقلاع وزعت المضيفات علينا الوجبات، استلمت وجبتي وفتحت علب الطعام كلها ثم أخذت أحدق اليها، كم أصبحت حياتي تشبه تلك الوجبة...

تقول الدراسات إن وجبة الطائرة ليست سيئة بالقدر الذي نظنه، لكن الضوضاء التي تحدثها الطائرة تمنع الدماغ من التعامل مع أي مدخلات حسية أخرى بصورة جيدة، كذلك أصبحت حياتي، ضوضاء شديدة تحتل المنصة الرئيسية بينما تعبرني الأيام و أتجاوزها أنا كحدث جانبي، أصبحت تلك الضوضاء هي الحياة، وحياتي مجرد مدخل حسي لا أتمكن من استيعابه، أدركت أني لست بحاجة إلى شيء يشتتني، بل إلى كابل أرضي يفرغ الشحنة التي بداخل رأسي، حتى أفرغ مكانا للحياة.

وهكذا بعد ابتسامات مصطنعة وأخرى حقيقية وأخرى تحاول عقد سلام مع نفسها، وصلت مرة أخرى إلى حيث بدأت الضوضاء، جئت هنا أبحث عن طرف الخيط لألملم حياتي، أو لأقطع هذا الخيط و أتركه هنا ورائي وأعود... المهم أن أجده!

لدي دائما كنبة لغريب، ولكن لا تقلق إنها ليست كنبة بروكروست.

تذكرت كلمات مونيك، ولم أتذكر ضحكتها.

ألقيت نفسي في تاكسي ثم على كنبة حانوت التاتو الذي تملكه مباشرة، سألتها إن كانت الكنبة شاغرة، أومأت برأسها.

وبدأت أيامي في عمق الألم!

يقولون أن إعادة التعايش مع ظروف الصدمة النفسية قد ينجيك من آثارها، لا يفل الحديد إلا الحديد!

عدت إلى أجل غير مسمى هذه المرة، سنة واحدة قابلة للتجديد مثل عقد إيجار الفيلا، أجرت الفيلا لمدير شركة أجنبي، واشترطت أن يتم تحويل الإيجار على حسابي بالدولار، القيمة كانت عالية، تكفيني أجرة شهر واحد لكي أبتاع استوديو في بالي وأعيش ملكا باقي السنة، لكني أردت أن آتي إلى هنا، إلى صاحبة التاتو، إمعانا في القرب من كل ما أنفر منه من ذكريات.

سألتني إأن كنت أريد الذهاب إلى البيت الآن، طلبت منها أن ترسم لي نفس التاتو الذي رسمته لحبيبتي أولا، يجب على أن أقهر كل الظروف، كل النذر المشؤومة، أو أرحل مثلها إن كان ذلك الوشم هو المسؤول.

كنت قد اعددت في عقلي ردودا كثيرة إذا امتنعت عن رسم ذلك الوشم على جسدي، ولكنها لم تمانع، أخبرتني أن هذا الوشم لسبب

ما؛ أصبح رائجا في الأيام الأخيرة، ربما بسبب حادثة حبيبتي، إن هؤلاء الذين أتوا من كل أنحاء أوروبا وأستراليا لم يأتوا هنا من أجل المنطق، بل بحثا عن كل شيء ضده.

انتهت من عملها، ارتديت قميصي ولم أنظر إلى التاتو، أعطتني المفتاح وذهبت إلى المنزل.

قضيت ساعات أصارع النوم، وأنا أعزو فشلي في عناقه إلى اختلاف التوقيت والطيران وووووو... ثم توقفت عن التفكير، ولكنه لم يأت أيضا، لم يأت لأيام متواصلة، غفوت قليلا، غفوات مريرة في كثير من الأحيان، ثم انتظم النوم، وأصابني الخواء.

خواء فقدان الشغف، هي لم تكن حبي الوحيد فقط، بل شغف امتلكني وطرد كل ند له مني، الآن كان علي أن أجد ندا، لأنساها به... ورغم أن المعركة غير متكافئة، فأحد طرفيها قد رحل بالفعل وترك المرمى فارغا، إلا أن ذلك لم يحسم الأمر سريعا.

جربت في البداية كل ما أحسست أني سأحبه، ثم انخرطت مباشرة في كل شغف وجدته أمامي، ولم يفلح أي منهم.

عدت لا إراديا إلى شغفي الأول... إليها... ولكن بصورة مغايرة هذه المرة، عدت أنتقدها، لقد كانت ذلك الصاروخ الذي دفعني إلى القمة، ثم تركني أعود متدحرجا على المنحدر، لا أملك ما يعينني على ألم وسرعة السقوط.

تمنيت أنها لم تتحدث لي، لو أني لم أرها أبدا.

أردت أن أنخرط في علاقة مع ضدها تماما، ربما نيكول، ربما إحدى المترددات على متجرها، ربما إحدى الفتيات اللاتي أقابلهن على الشاطئ أو في الأنشطة الجماعية... ولكن استوقفني هاجس أن أنتقل من شغف إلى شغف بدون أن أرمم روحي، ثم أفقد الأخير أيضا.

أي هاوية سأكون ألقيت نفسي فيها وقتها؟!

علي أن أركز على نفسي أولا، أولا...

لم أكن بحاجة لتذكر الأيام، تذكرت أول موعد للإيجار الشهري فقط، وبدون داع، أجرة الشهر الأول والتأمين لم ينتهِ عشرها حتى، ربما أردت أن أتأكد من التزام المستأجر حتى أطمأن و أنسى تذكر هذا اليوم أيضا.

حاولت كثيرا في بداية أيامي هنا أن أغلب على الضوضاء ثم لاح لي أن التخلص من الفوضى صعب، فخطر لي أن الحل هو أن أنظم الضوضاء التي تدور في رأسي، ضوضاء منظمة سيسهل التخلص منها أو الاعتياد عليها.

الموسيقا ستساعدني بالتأكيد.

سمعت كثيرا من الأغاني الميتال السوداء، حتى رأيت في المتجر رجلا يرتدي تيسرتا عليه صورة لشخص يرتدي بدلة سموكن سوداء ورأسه على شكل مقلة عين ترتدي قبعة سوداء طويلة، تذكرت أني رأيت هذا الشعار من قبل في متحف الفن الحديث في نيويورك، ما لفت نظري وقتها أن مقتنياتهم كانت موضوعة داخل ثلاجة منزلية مفتوحة على مصراعيها، لم أتذكر اسم الفريق المكون من أربع

أشخاص لا يعلم هويتهم أحد حتى الآن، سألت الرجل وأجابني أنهم ذا ريزدنتس، أخذت أبحث عن أغانيهم حتى وجدت أغنية أردت أن أعطيها لشخص آخر، أحسست أني وجدت ضالتي، موسيقا لا علاقة لها بالموسيقا سوى استخدام نفس النغمات، كلمات لا تبحث عن قافية أووزن يكملها، مغنيون مجهولون، أي فوضى أبحث عنها أكثر من ذلك، سيطرت علي كلمات الأغنية وموسيقاها.

أردت أن أعطيها لشخص آخر.

لأسمع ما سيقول.

أردت أن أعطيها لشخص آخر.

لأراه كيف سيلعب.

الرسالة الخامسة

دخلت الممرضة مرة أخرى لإعطائي دواء، كانت تبدو مكتئبة، فسألتها عن حالها لأني كنت أعتقد أنها كانت ستنفجر وتخبرني على أي حال، أخذت تشكو بكلام معظمه غير مفهوم، كانت تحاول جري لعالمها بأي شكل.

مذهل استعداد البشر لإلقاء كل همومهم على أي شخص لا تربطه بهم صلة، فهم يريدون انتهاز فرصة مقابلتك ليضموك إلى صفوفهم وكأنهم على وشك دخول حرب ضروس، كعادتي اكتفيت بالرد بكلمات مواساة ثابتة، ولم أدر فعلا في أي يوم ماذا يريد هؤلاء الناس بهذا الفعل، أرى في بعض الأحيان شخصا يتشاجر مع بائع ثم تجده ينظر إليك، أو امرأة تتشاجر مع امرأة وتجد الاثنتين تنظران إليك، في هذه الأحوال كنت أنظر إلى الناحية الأخرى بلا مبالاة فعلية، لأني كنت قد جربت قبل ذلك أن أنخرط في النقاش لأجد الشخص الذي نظر إلي ملتمسا العون يتنصل مني ويحاول التهدئة بيني وبين البائع، أو المرأة التي أخذت صفها تشيح بيدها وتتركنا نتشاجر وتذهب.

الحقيقة أن الناس يلتمسون العون من الأغراب لأسباب كثيرة، و أنا لست عر افا حتى أعرف ماذا يريد هذا الشخص الذي لا أعرفه مني الآن، لذلك قررت أن لا أدخل معركة لست طرفا فيها إلا لإنقاذ

مستضعف أو الوقوف في وجه طاغية، أما ما دون ذلك فليس لي شأن به.

أفقت من أفكاري لأجد الممرضة ما زالت تشكو، سألتها هل انتهيت من قياس الحرارة والضغط، فأجابت بنعم، وقد ضايقها أني قاطعت شكواها، أعرف أنها قلة ذوق مني لكنها أساءت استخدام تعاطفي معها، ولم أكن أريد أن أصبح حائط المبكى لها أو لغيرها.

لقد أخبرتك يا عزيزي من قبل عن خطورة أن تمنح أحدا تنازلا ليصبح فيما بعد حقا مكتسبا عليك.

فأنا هنا لفترة قصيرة، لا هدف لي من أي علاقة هنا، فأنا لا أهوى الدخول في علاقات في ظروف استثنائية، إن مناخ الوحدة والتعاطف هذا لن يصمد في الحياة العادية.

نظرت بجانبي بعد خروج الممرضة وكانت الرسالة تقبع هناك، ممثلة الغواية في شكلها البسيط، هل أستسلم لها، أم اكمل في عنادي؟

تساءلت عن الدافع لذلك، هل هو الفضول البحت، أم هي الرغبة في معرفة دوافع هذه الرسالة بالذات؟ ذلك لأنها لم تتجشم عناء البحث عن متجر ورود يعمل اليوم من أجل رسالة مثل التي أرسلتها من قبل، لا بد أن تكون هذه الرسالة مميزة بطريقة ما، ربما تكشف المرأة المجهولة عن هويتها أخيرا.

اللعنة عليها، إن هذه المرأة المجهولة تفرض نفسها علي مثل تلك الممرضة، وكثير من الناس الذين لا يكبدون أنفسهم عناء

استئذانك، إن تلك المجنونة اقتحمت خصوصيتي و أنا منحتها ميزة إضافية بترك الرسالة.

حسنا، فلتعلم أنك إذا أردت يا عزيزي أن لا تنشغل بشيء فلا تكتفِ بتجاهله، لأن وجوده سيفرض نفسه، سيصبح الموجود المتجاهل غواية، والغواية يسبقها دائما استعداد للغواية، لأن الاستعداد لو لم يكن موجودا كنت سأحرق الرسالة أو أقطعها وأرميها من النافذة بمجرد استلامها.

سمعت صوت طرقات على الباب أيقظني من أفكاري، دخلت الممرضات ومعهم كعكة كبيرة، أخذوا يغنون لي عيد ميلاد سعيد.

إنه يوم مولدي!

لكنني لم أتذكر، لأن الفيس بوك لا يرسل لي تنبيها بعيد ميلادي، وطبيعي أن ينسى من يوشك على فراق الدنيا يوم دخوله إليها، أتى معهم الطبيب الكبير وآخران أكبر من إدارة المستشفى؛ وجميعهم تلمع أعينهم كأنهم انتصروا في غزو ما.

في معظم بلاد الدنيا يسير المسؤول وسط الناس بلا تكلف، أما هنا فالمسؤول يسير على رأس سهم ويحتفظ الكل بتراتبية مقيتة.

ناول أحدهم السكين لمدير المستشفى رغم أنها لم تكن تبعد عن يديه، إن التواضع شيمة يجهلها هؤلاء المتعجرفون، والكرامة شيمة يجهلها هؤلاء المستصغرون الذين يتفننون في التذلل تحت مسمى الاحترام.

على كل لم يكن هذا بعيد ميلاد عادي، كان رسميا إلى أبعد الحدود، كنت أحس أنهم هنا ليدشنوا مشروعا جديدا أو ليضعوا حجر أساس لمشروع جديد يضاف إلى تلك المنصات القبيحة التي لم أر لها مثيلا في أي بلد محترم.

انتهت المهمة بالنسبة لهم، أراهن أنهم كانوا فخورين ويعتبرون هذا إنجازا لمستشفاهم المنعزل.

نسيت أن أخبرك يا عزيزي أنهم وضعوا شمعة واحدة على الكعكة، في الأغلب لأنهم لو وضعوا شمعا بعدد أعوام عمري لكلفهم ذلك أكثر من ثمن الكعكة نفسها، وفي الأرجح سيعيدون استخدام هذه الشمعة لمريض آخر...

تناول الجميع قطعا من الكعكة ما عداي حسب أوامر الطبيب الذي كان ينظر إليَّ نظرة عجيبة كنظرة قائد عسكري يرسل جنديا إلى حتفه بدون أسى.

أخبرني الطبيب أن موعد العملية قد تحدد بعد يومين من الآن. أتمنى أن تفهم الآن سر ارتباكي!

مددت يدي الآن إلى الرسالة وفتحتها، كان واضحا الآن لماذا تجشمت المرأة المجهولة المجنونة عناء إرسالها اليوم، فتحت الورقة لأجدها تهنئة بعيد ميلادي وبجانبها عبارات باللغة الإنجليزية.

Today you are you.

That is truer than true.

There is no one alive who is your than you.

«اليوم أنت أنت...

هذا حقيقي أكثر من الحقيقة...

لا يوجد أحد حي هو أنت أكثر منك».

إنها جملة جيدة وكنت أحبها جدا لدكتور سووس، بل إني كنت أقرأ القصيدة كاملة لابني في عيد ميلاده، كان طقسا خاصا بنا، ربما أخبرت هذه المرأة عنه يوما ما.

تلقيت اتصالا بعدها من ابني يهنئني بعيد ميلادي وأخبرته بما قاله الطبيب، جلست بعدها ساكنا لا أتحرك أغمضت عيني، تمنيت أن يكون ابني بجانبي الآن، تمنيت أن يهتم الجميع بي الآن، اهتماما حقيقيا، ولم أكن سأصدهم هذه المرة.

تمنيت أن يكون لدى كل إنسان لافتة يلوح بها فيعرف الناس أنه الآن، في هذه اللحظة بالذات شخص آخر غير من عرفوه، كنت سأرفعها لأقول أني أريد صحبه، أريد اهتماما، لكن للأسف لم تكن هذه اللافتة متاحة سوى في خيالي.

تمنيت أن أستطيع أن أقنعهم أني تغيرت، ولكن لكي أفعل ذلك على أن أهدم ذلك الحائط الذي بنيته، وأن أترك ذاك المستشفى المنعزل وأعود لأغير من عاداتي، أو أبقى فيها وأخرج لأحادثهم وأضحك معهم، بل إني سأضم لأحاديث النميمة، وسأحكي لهم عن كل الرسائل، وسأبتكر تفاصيل جديدة، سأكذب حتما حتى يظلوا بجانبي، سألعب معهم لعبة أخبرهم فيها عن كل النساء الذين عرفتهم و أتركهم يحذرون من التي ترسل الرسائل، بمعنى أصح سأصبح

إسانا آخر غير الذي أنا عليه، لكن تبقى أصعب القيود هي ما نكبل به أنفسنا بأنفسنا، وأصعب السجون هو ذلك السجن الوهمي الذي نبنيه داخل عقولنا.

قمت ووقفت في الشرفة طويلا، ناظرا إلى المساحات الخضراء أمامي.

غمرني إحساس غريب بالامتنان.

الامتنان نحو شجرة غير مهذبة الأغصان.

الامتنان نحو غيمة تحجب عني قبسا من نور الشمس.

الامتنان نحو مسطح أخضر شاسع لم أره اهتماما يوما.

من يدري، إذا كتبت لي الحياة ماذا سأعل، الاحتمال الأكبر أني لن أعير هذا المنظر اعتبارا.

سأنظر لكل هذا دون أن ألتفت، سأعتبره مجرد إطار للزينة كحديقة منزلي، تذكرت كلمات قرأتها عن البحر، كان قائلها يعتبره النموذج الانقلابي الأكبر حيث الماء يثور كل لحظة ويناقض نفسه كل لحظة ويفقد ذاكرته كل لحظة.

إن البحر ليس النموذج الانقلابي الأعظم يا عزيزي.

إن الإنسان هو النموذج الانقلابي الأعظم حيث الموج يأتي من داخلنا لنثور على أفكارنا وعلى أنفسنا ونناقض أنفسنا، ونفقد ذاكرتنا كل لحظة أيضا.

وبنظرة أكثر عمقا، لو لم نكن نتغير لكان هذا العالم عبثا، ما الفائدة في وجودنا إن لم نكن سنخطئ ونصيب، نذنب ونستغفر، نتغير من حال إلى حال.

أذت أتذكر ماذا كنت أفعل السنة الماضية في مثل هذا اليوم، والسنة التي قبلها والتي قبلها، مرت أمامي خيالات من احتفلت معهم ومن فاجأوني بتذكر اليوم، وكنت أظن وكانوا هم أيضا يظنون أننا سنظل معا، أراحتني فكرة أن هذه المرأة المجهولة ربما كانت إحداهن.

وأراحني أكثر أن أفكر أنها ستمر علي هي أيضا كخيال مجهول إن كُتِب لي أن أحتفل بهذا اليوم مرة أخرى، وكأن هذا انتصار أراه في الأفق البعيد على هذه المرأة.

أنتِ أيضا ستمرين مثل كل من مروا.

و أبقى أنا وحيدا لن يفرض على أحد نفسه.

قررت عند هذا الخاطر يا عزيزي أن أنفض الأفكار كلها.

وأستمتع بذلك اليوم الذي يحمل فيه الرجال والنساء في مصر لقبا واحدا.

لقب (أبو الفصاد).

المصلحة

قالت العاهرة: إنتي عاوزه تلهفي نص الفلوس لوحدك.

فردت القوادة: أيوه، مش أنا اللي جايبه المصلحه.

المصلحة!

أسقطتني هذه الكلمة من علياء عليائي، أفقدتني تلك المكانة التي افترضتها لتبرر لي بقائي في مثل هذه العلاقات الرخيصة، كنت أحدث نفسي أن العهر في هذه العلاقة مقتصر على الطرف الأضعف، العهر صفة أنثوية بالتأكيد، هكذا اعتقدت، تحل على من تبيع جسدها فقط، لكن هذه الكلمة، المصلحة، ألصقت بي عهرا لن أنساه.

ثرت وصببت جام غضبي على العاهرتين يومها، ألقيتهما إلى الشارع تتنازعان مالي.

رحلتا من بيتي، ورحلت أنا بغير رجعة عن ذلك الطريق المظلم.

المصلحة!

رنت الكلمة في أذني مرة أخرى اليوم.

سمعت أحدهم يقول لمونيك إنها يجب أن تنام معي، فربما يخرجني ذلك من بؤسي.

ردت مونيك بأنها لن تفعل، لأني سأنام معها بدافع الغضب، وهي ستنام معي بدافع الشفقة، وهذا لن يكون ممتعا لها، فأهم شيء بالنسبة لها في الجنس هو الانسجام.

الشفقة!

المصلحة!

الشفقة!

بقيت أدير الكلمتين في رأسي... ولا تنطلق الدمعات اللعينة...

هذه المرة لم أثر، لم أصب جام غضبي لأني لم يكن لدي جام غضب... أوربما لأني في القاع.

اكتشفت لحظتها أن القاع رحيم، لا يختبرك القاع، لا يعطيك دروسا، ولا يضع أمامك تحديات... لا يرتج ليصفعك، لا يأبه لغرورك... أو أن القاع له قوانين أخرى... أو أني لم أعد مهما.

الحقيقة أني في الموقفين كنت في القاع، لكني لم أرد أن أدرك ذلك في المرة الأولى.

بقيت أياما أخرى على الكنبة التي اتضح في النهاية أنها كنبة بروكروست، ولكن لم تكن مونيك هي بروكروست، بل أصدقاؤها.

استيقظت يوما لأرى مونيك تجلس على المقعد أمامي، تدخن سيجارة بتلذذ ما بعد الانتشاء.

ترتدي قميصا رجاليا بلون زرقة السماء الصافية، تضع رجلا فوق رجل، وقميصها مسدلا عن أحد كتفيها.

أشارت لي على لوحة انتهت للتو من رسمها، فرأيت كل ألوان لهب النار في خلفية اللوحة... تحاوط صورة لرجل يقف مواجها نافذة، يرفع يديه على حافتي النافذة، النافذة غائرة في مواجهة قبضتيه.

الجسم رسم بالكامل بلون الشمع، وبدلا من الرأس هناك فتيل يحترق!

اللعنة! هذا أنا!

فتيل يحترق في جسد من الشمع يأبى أن ينصهر.

إن كنت أوشكت على البكاء، فهذا حدث هذه المرة.

نظرت إلى مونيك مرة أخرى... نفثت دخان سيجارتها في اتجاهي... اندفع الدخان للأمام قليلا، ثم انتشر ليحجب عني وجهها... ولكني في وسط الدخان، ووسط اللامبالاة التي تحيط بها نفسها رأيت الحقيقة.

رأيت الغضب الذي ألصقته بي واضحا في عينيها.

كانت هي الغضبى، وكنت أنا اللا مبالي.

حتى مع فتنتها، وذلك النمش البادي على كتفها كأنه نثر هناك ليستفز رجولتي، كنت أنا اللا مبالي... وكانت هي الغضبى...

نفثت دخانها مرة أخرى، وقامت بعدها إلى غرفتها.

قمت أنا ولممت أشيائي.

أسوأ أنواع الحقائق تكشف عن نفسها في لحظة صمت، كشفت أنا عن حقيقة إحساسها، وكشفت هي عن مكنون روحي.

فكرت في أن أمتثل لرغبتها الدفينة، لكن الانسجام لن يحدث، فقد تبادلنا الأدوار في لعبة لحظية من ألعاب القدر، ستكون هي الغضبى وسأكون أنا المشفق.

نظرت للوحة مرة أخرى، ثم خلعتها عن بروازها وأخذتها.

أحسست و أنا أنظر لها قبل أن أضعها في حقيبتي أني أنظر إلى لوحة لنصف إله إغريقي قديم... عذابه أن يشتعل رأسه دون جسده!

أدركت لاحقا أن الانسجام كان سيحدث، عندما أمعنت التفكير في نظرة مونيك ظهرت لي الحقيقة، مونيك لم تكن غاضبة مني، كانت غاضبة من الفتاة الشرقية التي جذبت رواد ورسامي مونمارتر، من فراشتي، كنت أنا معركتها الأخيرة معها، معركة تركتها خلفها عندما رحلت، استدعيت بوجودي الزائغ طبول الحرب، أي امرأة تترك رجلا محطما هكذا وراءها هي امرأة تستحق الإعجاب، كان الانسجام سيحدث لأني أنا أيضا كنت غاضبا من فراشتي، أحيانا لأنها رحلت وأحيانا لأنها تواجدت في حياتي من الأساس، غضبنا منها كان سيوحدنا، ربما كان هذا خلاصي كما رآه أصدقاء مونيك.

فراش الألم

لم أعلم إلى أين أذهب.

انحرفت فجأة عن طريقي.

ذلك الهاجس الذي يراودني دائما بأن أنحرف كليا، تبعته.

أردت أن أعود إلى قاع لا أدركه.

ألقيت نفسي في سيل الشارع بلا أدنى توجيه.

تركته يقودني إلى حيث يشاء.

تركت بنات الهوى يلمسن يدي، لم أقاوم.

مضيت فقط في طريقي.

إلى أن حولت إحداهن مجراي.

أخذتني إلى حانوت المساج، لم تكن تمسك بيدي.

كانت تلمسها فقط.

كانت هي توجهني بنصف غو اية و أتبعها أنا بنصف اختيار.

الحانوت مظلم، وضوضاء الشارع تضرب في جنباته ككرات

البلياردو، صدى يختلط بصدى فينتجان صدى آخر؛ يحدث صدى آخر ويختمران في عقلي فيزيدانه اضطرابا وغيابا.

أغلقت عيني، أردت أن أرى أي بارقة نور في الظلام... اعتصرتها وكأني أطرد بقايا اللوحة... فتحتها لأرى ثلاث ستائر تتدلى من السقف، تحجب كل منها سريرا معدا للمساج... انشغلت هي بإيقاظ صديقتها من على السرير، ثم لملمت أشيائها من على سريرها ووضعتها تحته.

من بعثرة الأشياء أدركت أن هذا سريرها الذي تبيت عليه، وتعمل عليه.

رفعت قماشا خفيفا من على بعض عبوات الزيوت، وأشارت لي أن أخلع ملابسي وأرقد على السرير... أنهت عملها بسرعة، عملها المعلن على الأقل... ثم ساومتني على علاقة فموية أو علاقة كاملة.

لم أرد عليها أخرجت المبلغ الذي طلبته من شنطتي وأعطيتها ثمنا للعلاقتين.

حدت أنا عن طريقي ولكنه بقي على العهد... انحرفت أنا ولكنه لم يستقم.

بدأت الحمم تتجمع مرة أخرى في وجهي، جلست بحركة واحدة، وتفادتني هي برشاقة مدهشة... تحسست رأسي بيديها، ثم ارتقت إلى السرير بركبتيها، وضمتني على صدرها، وبقينا هكذا... وانخفضت حرارتي فجأة، وترقرقت عيناي.

وسكنت.

في حضن عاهرة، وعلى بعد ستار داكن من ضوضاء الشارع، سكنت.

لا أعلم كم بقيت، ولكني أخرجت كل ما تبقى معي من النقود من شنطتي وأعطيتها للفتاة عندما انتهيت.

أتت الإجابة هذه المرة قبل السؤال، كنت سأسال نفسي لماذا سكنت، ولماذا أحست الفتاة بما بي، ولكن الإجابة سبقتهم.

لقد أحست بي لأنها مثلي تماما.

تنام مع ألمها في فراش واحد!

...

مدفوعا بالحمم، ألقيت نفسي في سيل الشارع مجددا، حتى وجدت نفسي أمامه: أمام (يومان)، أعطيته شنطتي، وخلعت ملابسي، وألقيت نفسي في حمام السباحة.

أبقيت وجهي تحت الماء طويلا، عندما رفعته وجدت أن يومان تركني وعاد إلى مكانه في استقبال الفندق... وعزمت على أن لا أبيت مع ألمي مرة أخرى.

إن لم يكن سيخرج مني، إن لم تفلح الدراجات البخارية، ومصاطب حقول الأرز، ولم تفلح مونيك وغيرها في جعلي أخرجه فعلي أن أتجاهله، أو أنساه أو أي شيء.

سيرحل المرض بإرادتي، ولكني على يقين أن أجسامه المضادة ستبقى دائما في دمي.

سأتعامل مع الألم النفسي بنفس طريقة الألم الجسدي، بالمسكنات، المسكنات لا تقضي على الألم، تمنع وصول إشارات الألم للمخ فقط، سأفعل ذلك بإرادتي من الآن.

لن أحاول أن أخرجه مرة أخرى، لن أبالي بالحمم.

تركت بالي ذلك اليوم وعدت إلى القاهرة.

فارقنا ترى ما كاسي.

أخذت الكلمة تتردد في رأسي مجددا، كان علي أن أنزل في مطار كوالا أولا.

أبقيت عيني مفتوحتين على الطائرتين، أردت أن يكون كل ذلك الزحام البصري معي داخل رأسي، لم أكن على استعداد للانفراد بنفسي بعد.

بقيت في شقة مستأجرة حتى انتهى عقد إيجار فيلتي، وامتهنت عملا عاديا ليشغلني... وتوقفت الحمم، أو هكذا تصورت!

فقد أحدثت صدمة الصورة حالة من اللامبالاة، فقد مللت من التوهج، أو مللت من متابعة سببه، وقررت في هذه المرحلة من الصراع أن أنسى آلامي وأطبق إحدى نظريات الحرب الحديثة التي قرأتها، نظرية ليدل هارت.

نظرية الاختراق، حيث تخترق قواتك قوات العدو، وتتقدم محرزة انتصارات مع تطويق ومحاصرة جيوب قوات العدو.

وهكذا مضيت في طريقي، أحاصر جيوب الألم، أحاصر نوا قصي وأخترق الصعوبات كي أنتصر وأكون سعيدا.

لكني اكتشفت أن هذه الطريقة خادعة، كي تنتصر بها يجب أن تحتفظ بخريطة جيدة للجيوب التي تركتها، يجب أن تعود لتواجه هذه الجيوب، يجب أن تقدر قوات العدو في هذه الجيوب جيدا... وإلا حصلت على انتصار زائف.

وكان هذا بالفعل ما حصلت عليه: انتصار زائف، مظهر رجل ناجح تملأه المنغصات، لكن الميزة هنا أني كنت الوحيد الذي أعلم أنه انتصار زائف، الكل يرى رجلا ناجحا، لكني كنت أعاني مع محاصرة ذكراها.

لاحقا قررت أن أعيش حياتين: حياة تنساها عندما أكون خارج المنزل، وحياة تعيش على ذكراها عندما أكون وحدي محاطا بها في كل جانب.

رحيل الأب الضال

فرح لرؤيتي ثم تجاوزتني عيناه بسرعة، فرِح فرَح من يمد يده ليرى السماء تندع ثم ينظر للسماء منتظرا المطر الحقيقي.

كان يبحث عنها، وقفت وراءه.

لم أشأ أن أرى عينيه أو يرى عيني.

نظرت إليه، إلى أسفل و أنا أرى رأسه حيرى بين كل الاتجاهات يبحث عن أمه، و أتمنى أنا أن يجدها، أن يكون كل ما حدث مجرد حلم.

احتضنه، وهو يسأل عنها، قبلته وهو يسأل عنها...

تأخذه جدته من يدي، و أبتعد أنا عنه، أعود لحياة شاغرة، لا أريد أن أتعرف عليها؛ لا أريد أن أملاها، لا أريد أن أحياها.

تركته لأسرة بديلة، أملا في تأجيل اللقاء، ثم استقام الأمر، لم تعد عيناه تسأل، أما عيني فما زالت لا تملك إجابة، حتى عندما أنشئ طريق جديد جعلنا أقرب كثيرا، كيلومترات قليلة، لم أكن أتردد عليه أو عليهم، وعندما بدأت التردد لم أجد رابطا، لم أجد رابطا بيني وبين أهلها، ولم أجد رابطا وثيقا بيني وبين ابني، سوى فكرة أنه كان جزءًا مني، جزءًا لا يُرى بالعين المجردة.

أخذته هي واعتنت به وكبر منها وفيها حتى أصبح كائنا جميلا، كائنا لم يجد الراحة بقربي، ولم أجد طريقي إليه.

بدأت آخذه لنزهات معروفة ومحفوظة، يلهو فأظن أني أسعده، يفرح فأعتقد أن فرحته لرؤيتي، إذا أراد شيئا لا يقوله، يرسمه، يرسم لي شخوصا وقلوبا لا أفهمها، كنت أحسب أنها مجرد أشياء يرسمها، حتى بدأت جدته تفسر لي أنها رسائل يصعب علي وعليها فهمها.

ابتعدت كثيرا، كان لدي حروب أخوضها، و ابتعد هو أكثر، وكلما التقينا التزمنا منازلنا.

أب و ابن.

أقول ويسمع.

أنصح فينصت وينفذ.

لم أتدخل إلا في القليل من شؤون حياته.

شؤون روحه إن صدق التعبير.

هكذا تعلمت من تجربتي مع أمه.

ألا ألمس روحه.

عدت إلى عمل جديد

مدير هذه المرة.

اكتشفت من أول يوم أن مشاكل العمل أقل من عشر المشاكل الشخصية.

حاولت.

واعتقدت قليلا أني نجحت.

اعتمدت على مبدأ جديد، فقد اكتشفت أن كل مشكلة تأتي لي يسعى كل منهم لإثبات أن الآخر هو الذي بدأ، لكني كنت أعاملهم بمبدأ مختلف، كنت أقول لهم أني سأحاسب كل منهم على غلطاته منفردة.

إذا أخطات خمس مرات وأخطأ هو خمس مرات سأعاقبكم عقابا متساويا؛ لا أفرق بين من بدأ وبين من رد.

ثم انتقلت لفكرة أفضل.

كنت أحاسب من رد حسابا مضاعفا.

لأن من بدأ أخطأ في حق زميله فقط، أما من رد فقد أخطأ في حق زميله وفي حقي أيضا لأنه تحدى سلطتي.

هذا كان يبقى الأمور عند أول درجة والأخطاء في صورة بسيطة يسهل المعاقبة عليها أو حلها، لكن الأمورلم تكتمل، ولم أحتمل هذا المنصب، فقررت أن أتنحى عن أي منصب رسمي، وأعود إلى صفوف الجماهير، و أترك هذا العمل إلى عمل آخر.

لم تختلف بيئة العمل هذه المرة عما سبقها، كلاب بلا عظمة تنهش لحم بعضها البعض ثم يمضغونه ويبصقونه.

اختلفت أنا قليلا، في داخل العمل كنت دائما شخصا محتملا، صديقا محتملا لمن توسموا بي خيرا ثم تركوني للامبالاتي، وعدوا محتملا لمن ظنوا بي شرا، أو من كانوا يبحثون عن عدو جديد على سبيل التجديد ليس أكثر.

وبقيت أنا ذلك الصديق والعدو المحتمل شخصا محتملا، لا أعلم جديا أين ستقذفني رياح الأيام، أتمايل بين كل الزوايا وأدور في كل الاتجاهات كسفينة في بحر هائج ليس له حدود.

لا أنا توقفني صخرة.

ولا تبتلعني دوامة.

ولا أجد لليابسة دليلا على الوجود.

عدت إلى قاهرتي

قاهرتي الساهرة، قاهرة أخرى غير التي نراها في النهار، شوارع هادئة، سيارات فاخرة لا نلحظها نهارا أبدا، نسمات باردة تلسع الجلد كسوط فارس يحث فرسه على الركض، براح مستحق بدون مبرر واضح.

استمتعت بها كثيرا و أنا أقود سيارتي كما كنت قديما، وألف بها في الشوارع بلا هدف.

فكرت أن أعود لعادتي القديمة، لا ضير في أن أكون مصلحة، عقدت سلاما بدون عقل مع الكلمة، لكن الظروف كانت قد تغيرت.

قديما كانت الأماكن التي يقف فيها فتيات الليل معروفة، ثلاثة في القاهرة و اثنين في الجيزة، تأتي إليها فتصيبك جرأة لم تعهدها في نفسك، إذا كان الرجل لا يحتمل أن تهان كرامته أمام امرأة فهو بالتأكيد لا يحتمل أن تهان كرامته على لسان عاهرة.

في حضرة العاهرة صاحب المزاج قواد.

تلبس وجها مكشوفا تتمنى لو استطعت أن تلبسه في كل وقت، تقول رغباتك بكل فجاجة وغلظة، حتى قامت شرطة الآداب في أو ائل الألفية بحملة موسعة على هذه الاماكن، والرذيلة فيروس كما تعلم، تتاقلم وتغير من شكلها وتنتشر، فانتشرت فتيات الليل في شوارع

القاهرة كلها، جعل هذا الجرأة تنتشر في ربوع القاهرة، وأصبحت كل بنت تقف في الشارع صيدا محتملا، وانتشرت من ساعتها المعاكسات والمضايقات، واجترأ الرجال المنفلتون على فعل ذلك في كل مكان، أنا لم أقدر، ولم أفعل.

...

أعطتني الممرضة الدواء، وقالت إنها لن تزعجني اليوم بعد ذلك، قلت لها بالعكس فأنا أحبك.

نظرت لي نظرة غريبة، وابتسمت وهي تستأذنني في الخروج، أحبها، لقد قلت لها إني أحبها، أنا بالتأكيد لم أقصد ذلك، ربما كان قصدي أني لا أكرهها، وذلك لا يعني أني أحبها.

لكنها كانت تقول إنها لن تزعجني، ما علاقة هذا بالحب أو الكره.

إن هذا حتما من أفعال ذلك الباطن، ولقد ككففت عن اعتبار هذه رسالات.

إنها حرب لا شك في ذلك.

إن هذا الباطن لا يعجبه حياتي ويبادر دائما إلى فعل أشياء لن أفعلها بملئ إرادتي أبدا، كان علي قبل أن أستغرق في أفكاري أن أحاول امتصاص أثر ما حدث، فضغطت جرس الاستدعاء بجانبي، أتت إلى الممرضة، ولم تخط داخل الغرفة سوى خطوات تسمح لها بأن تراني وفي نفس الوقت تحتفظ بالباب مفتوحا، قلت لها إني لم أقصد أي إساءة بما قلت، ردت علي بأن الحب ليس إساءة وأنها فهمتني بصورة صحيحة، شكرتها على تفهمها.

استدارت لتغادر الغرفة، وهي تغلق الباب نظرت إلي عبر المرأة المعلقة بجانب الباب، كانت هي تنظر إلي وكنت أنا أنظر إلى مؤخرتها، وقد رأت هي ذلك واضحا.

أنا أصدقك القول هنا يا عزيزي، ولست بصدد الدفاع عن نفسي، لكني فعلا لم أقصد أن أنظر إلى مؤخرتها، و أقسم لك بأني لم أكن أمتلك السيطرة على عيني في هذه اللحظات، لقد انتهز هذا العقل الباطن الباطل فرصة ارتياحي من مأزق الكلمة الأولى ليباغتني بطعنة من الخلف، وينتصر انتصارا غير شريف ككل انتصاراته، إذا كان علي أن أحذرك من أحد يا عزيزي فهو هذا العقل الباطن.

إنه يفعل ما لا نريد، ويعلم أشياءً كثيرة ولا يفصح لنا عنها، لكنه أظهر نفسه هذه المرة في حرب كبيرة، فهو يعلم من هي المرأة المجهولة ويخفي ذلك عنا، وهذا يعني أنه لأول مرة دخل معنا في صراع طويل، كانت كل حروبه وغزواته قبل ذلك مثل هجمات الإرهابيين الجبناء، خاطفة لا تتعدى ثوان؛ سواء كانت زلة لسان أو حلم.

أما هذه الحرب الطويلة فربما تعطينا ولأول مرة الفرصة لكي نعرف أساليبه وطرقه وربما نفك شفرة ألغازه للأبد، أنا الآن أطلب منك يا عزيزي عكس ما فعلته أنا، لا تتجاهل المرأة المجهولة، و ابحث عنها.

فهي مفتاح مهم من مفاتيح هذا اللغز.

الرسالة السادسة

ألعاب الوحدة

أتت اليوم ممرضتان غير ممرضة أمس لتفقد حالتي، حسنا لقد نجح العقل الباطن في إظهاري بمظهر المتحرش، فأن تأتي إلى غرفتي ممرضتان أمر غير عادي.

أحسست بضيق شديد، فأنا لم أرد سوى أن أُترَك في حالي منذ أتيت إلى هذه المستشفى، لقد صورتني المرأة المجهولة كشخص غامض، وهو ما لم يقنع عقلي الباطن الذي يريد الانتقام مني لسبب لا أعلمه، فأسدل الستار على إقامتي هنا كمتحرش.

آلمتني فكرة أن هذه قد تكون أيضا نهاية حياتي كلها.

أعطتني الممرضة الورود التي كانت تقف حاملة إياها، وصلت الورود اليوم بشكل مختلف وصورة مختلفة، إنها ورود عام جديد.

كانت الرسالة من كلمات دكتور سووس اليوم أيضا.

I'm afraid that sometimes you'll play lonely games too.
Games you can't win, cause you'll play against you.

«أخاف أنك في بعض الأحيان ستلعب ألعاب الوحدة.

ألعاب لا يمكنك أن تكسبها لأنك ستلاعب نفسك».

لا أعلم لماذا لم أفكر، لقد طفح الكيل، ضربت جرس استدعاء الممرضة، فأتت الممرضتان مرة أخرى.

يا للهول، لقد أصبحت فعلا متحرشا أو على الأقل متحرشا محتملا من وجهة نظرهن، طلبت ورقة بيضاء وقلما، كتبت عنوان بريدي الإلكتروني وأخبرت الممرضتين أن يعطوه لفتى التوصيل ليرسله إلى المرأة التي تبعث الورود، إما أن تراسلني، أو توقف إرسال الورود.

تفهمت إحداهما ضيقي، أحسست أنها ضاقت هي الأخرى بهذا اللغز الذي طال، أما الأخرى التي تتولى مهام الحراسة، فلم تبدو مكترثة.

لم أفهم لماذا فعلت ذلك!

ربما لأن غواية أمس أرهقتني، فلم أشأ أن أطيل الغواية أكثر، أو لأني لم أئتمن أن أترك حل اللغز لأحد غيري، فمن يدري قد أكون بعد الجراحة خبيثا مثل عقلي الباطن، ربما قلت على نفسي أنه أصابني مرض عقلي من انعزالي، وأن ما حدث هنا هو وسواس، ربما أحرقت الرسائل، وقلت أني أرسلتها لنفسي رغم أني فعلا تأكدت من عدم صحة ذلك الافتراض.

إنه مؤلم أن لا تأمن حكم نفسك عليك.

لا أعلم سبب تصرفي، لكن المؤكد أن كلامها اليوم مس وترا حساسا لدي، إن هذه الكلمات كانت ترعبني كلما رددتها لنفسي أيام المراهقة وبعدها، كنت أخاف أن أنتهي هكذا.

وللمفارقة يبدو هذا الآن خوفا غير مبرر، لقد كنت أحارب في سنو اتي الأخيرة لأحظى بما أخاف منه، أقمت حو ائط كثيرة بيني وبين الناس، بيني وبين زملائي، حتى ابني، أقرب شخص لي كان بعيدا تقريبا طيلة حياته، وأعترف أني سعدت عندما اختار جامعة في فرنسا.

حتى في ما قد يكون أيامي الأخيرة لم أتغير، لقد اخترت مستشفى بعيدا منعزلا، رفضت الحديث مع طاقم المستشفى، لم أبادر بالحديث مع المرأة اللطيفة التي جلست بجانبي.

ماذا حدث لي في الرحلة، الرحلة التي بدأت منذ قرأت هذه الكلمات ودونتها في مذكرات المراهقة حتى الآن.

ماذا تغير؟

ماذا انكسر بداخلي؟

لقد حاربت لأجعل حياتي نسخة مما كنت أخاف منه.

تذكرت كلمات تهنئة عيد الميلاد.

الآن أنت أنت.

ومن كنت أنا عندما كنت أخاف من الوحدة؟

ومن أنا عندما أصبحت أحارب من أجل الوحدة؟

هل ينطبق على في الحالتين كوني أنا؟

كيف أكون أنا أنا في حالين مختلفين؟

وهل سأنقلب مرة أخرى مثلما انقلبت الآن؟

هل كان هذا ما يخاف منه قلبي، ولكنه كان ما يسعى له عقلي؟

هل أنا واحد أم أتغير؟ أم أني أكثر من أنا في وقت واحد؟

لقد كنت مصمما منذ أيام قليلة على مراجعة مراحل حياتي واختيار لقطات ولم أفعل.

هل هناك من يتنازع في داخلي؟

أهناك من يرغب في شيء ومن يمنعه؟

إنه إحساس غير سار أن تحس بتناقض في داخلك.

إنه تناقض تركته ليصبح صراعا مفتوحا الآن.

إذا لم أكن مسيطرا على حياتي من قبل، ولم أكن مسيطرا حتى في أيامي الأخيرة؛ كيف أتوقع أن أسيطر على لحظاتي الأخيرة؟

نفضت من عقلي فكرة السيطرة على لحظاتي الأخيرة نهائيا الآن، إنني أقدم تنازلات كثيرة و أنا لم أصل لهذا اليوم بعد.

انعكس الضيق على المرأة المجهولة بسرعة، تناولت إحدى الرسائل و اتصلت برقم المتجر المطبوع على الغلاف الخارجي، طلبت منهم أن يرسلوا رسالة إلى المرأة المجهولة بأن تكف عن إرسال

الرسائل والورود حتى تحقق اتصالا معي، أخذ رقمي وأخبرني أنه سيعاود الاتصال بي، اتصل بعد ساعة ليخبرني أن الورود لن تصلني بعد اليوم.

إن هذه اللعينة مصرة على أن تبقى لما بعد الجراحة.

...

استيقظت على دقات باب غير مألوفة، فهنا يدقون الباب ولا ينتظرون ردك لأني رجل وحيد في الغرفة فأنا مباح لهم.

هذه الدقات انتظرت حتى أعطيها الإذن، أنرت الغرفة واعتدلت في جلستي وقلت تفضل، وجدت ابني داخلا للغرفة وفي يده سلة من الورود.

قال إنه فضل أن يأتي بالورود بنفسه اليوم.

ابتسمت ابتسامة عميقة، انقلب السخط والضيق كله إلى فرح.

إنه ابني من كان يرسل الورود.

وأخبرني أنه كان ينقلها من مذكرات المراهقة التي أهديتها له قبل سفره، ونسيت ذلك ولم يخطر بباله أني لن أعلم أن الزهور منه.

تذكرت الآن إهدائي المذكرات له، وكيف أخبرته وقتها أن هذه المذكرات كانت مهمة لي، وقد رأى أن يرسلها إلي مرة أخرى.

وحكى لي كيف أنه اختار المقاطع التي أرسلها بناء على حيلة ذكية.

فكما قلت لك يا عزيزي أني تعودت أن أستخدم القلم في أثناء مذاكرتي لدروسي، كنت أستخدمه أيضا و أنا أقرأ، لكن كنت أضع الغطاء و أقف عند أول كل سطر وأحيانا عند كل كلمة، ولاحظ هو ذلك فاختار الكلمات التي كان عندها أكبر عدد من النقرات، ورتبها على أساس ذلك، إنه ذكي مثل والده.

جلس بجانبي، وطمأنني إلى أنه قد أنهى التزاماته مبكرا وأن وجوده هنا لا يعطله عن شيء... أخذ بيدي إلى النافذة وأخرج قصيدة «عيد ميلاد سعيد لك» للدكتور سووس من شنطته.

وأخذ يقرأها معي كما تعودت أن أقراها معه في عيد ميلاده.

الرسالة السابعة

Le bateau

قضى ابني ساعات بجانبي يستمع إليَّ ثم استأذنني أن يذهب للمبيت عند جده وجدته، فهو لم يرهم، فقد قدم من المطار إلى هنا مباشرة وأخبرني أنه سيعود في الصباح الباكر.

نظر إلى الورود التي أحضرها وسألني لماذا لم أفتح الرسالة، الحقيقة أنني لم ألاحظ وجود رسالة، أعطاني مظروف الرسالة ثم استأذن في الانصراف.

فتحت الرسالة لأجدها هذه المرة صورة للوحة، لوحة القارب للرسام الفرنسي هنري ماتييه.

لم تكن اللوحة مفضلة بالنسبة لي أو له، بل كانت قصتها هي الأهم، ففي ستينيات القرن الماضي أقام متحف الفن الحديث بنيويورك معرضا لأعمال هنري ماتييه، وكانت من بينها هذه اللوحة، الطريف أن مسؤولي المعرض علقوا اللوحة بالمقلوب لمدة 47 يوما؛ زار خلالها المعرض 116 ألف شخص من بينهم ابن هنري ماتييه، وكان يعمل في بيع اللوحات الفنية، ولم يلتفت أحد منهم إلى أن اللوحة معلقة بالمقلوب.

الحقيقة أن اللوحة مربكة فعلا، فهي مجرد شراع وتأثيرات من السماء و انعكاسها، لكن كذلك تكون الحياة أحيانا، معقدة ومربكة، ربما كنت أنا أيضا أنظر للحياة بالمقلوب ولم ألتفت لذلك...

احتمال كبير!

لوحة القارب لهنري ماتييه.

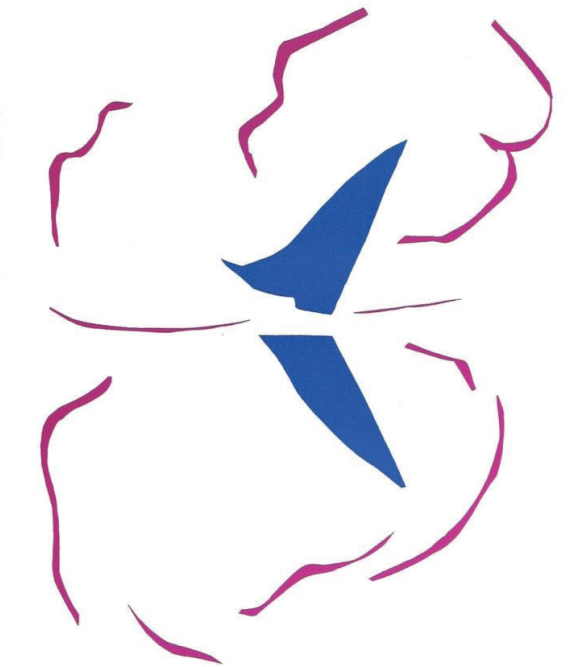

ما العيب في ذلك!

أتى الإفطار في موعده، وبعده أتت الممرضة للفحص الدوري، بعد أن انتهت شكرتها وسألتها عن حالها، وعن ابنتها؛ هل عادت لخطيبها أو لا...

ابتسمت لأني تذكرت ما حكته لي، كانت تعتقد أني لم أكن أسمعها، الحقيقة أني أيضا كنت أعتقد ذلك، فلم يخطر ببالي أني سمعت كلمة مما قالت، بل إني لم أعاملها جيدا حينما كانت تحدثني...

أخبرتني أن ابنتها تركت خطيبها وأن ذلك تبين أنه الصواب لأن الناس أخبروها بأشياء لم تكن تعرفها عن العريس وعائلته، واستغربت لأن هؤلاء الناس هم من سألتهم قبل الخطبة، ولم يقولوا شيئا، ثم استأذنت في الانصراف وعلى وجهها ابتسامة صافية.

ابتسامة امرأة اكتشفت أن أحدا لم تحسبه يهتم، وجدته حقا يهتم.

جلس ابني بجانبي وهو سعيد، سألني إن كنت أريد شيئا.

شكرته، سألني إن كنت أريد أن يقرأ لي شيئا من مذكراتي أو تلك الأجندة الجديدة التي رآها بجانبي.

نظرت إلى الأجندتين ثم ابتسمت، فلم يعد هناك حاجة لذلك.

كنت أحفظ المذكرات، لكن حضرني منها قول واحد فقط.

«ليس يجعلنا عظماء غير ألم عظيم».

أصبحت الحقيقة الواضحة أمامي الآن بدون أي تفكير أني لم أسمح للألم أن يغيرني، بل إني تماديت فلم أعترف بألم الفراق عن زوجتي، أحسست بنغزة في قلبي مثل التي أحسستها يوم فارقتني، كأني عدت لنفس اللحظة لأواجه الألم الذي تركته هناك، أو الذي اعتقدت أني تركته على جبهتها عندما قبلتها لآخر مرة وهي مسجية على فراش الموت؛ لا يبدو من الكفن سوى وجهها.

حسبت أني تركت على وجنتها ألمي كله، ومضيت بدون ألم كل هذه السنوات.

لكن الحقيقة هي أني أمضيت حياتي أركض خوفا من مواجهة آلامي.

الآن أصبح واضحا مشهد الامتنان الذي أحسسته تجاه الطبيعة، فلم تكن الشجرة غير المهذبة سوى روحي، ولم تكن الغيمة سوى الغيمة التي تحجب ألمي، وكانت تلك النافذة نافذتي التي رأيت منها روحي.

أغمضت عيني وراودتني رغبة شديدة في أن أفرك عيني، لم يكن فرك العينين هنا لحاجة جسدية، أأردت أن أفتح عيني بطريقة جديدة، أن أرى العالم معدولا لا مقلوبا كقارب ماتييه.

نظرت إلى ابني، تغير شكله وتسريحة شعره وطريقة لبسه، أصبحت أراه يافعا لأول مرة، لم أرغب في تدليله الآن، بل أردته أن يكون صديقي الأول، سألته عن حاله، ولم أقف عند هذا السؤال.

طلبت منه أن يحكي لي كل شيء، يوما بيوم منذ سفره إلى الآن، كل تجاربه، كل خبراته، كل تفصيلة صغيرة في حياته لا أعلمها.

نعم كان هذا هروبا من الألم مرة أخرى، لكني هذه المرة كنت أعلم أنه هروب مؤقت.

جراح النفس لا تندمل بغير عناية.

أدهشني أن ابني انطلق كمن كان ينتظر هذه الدعوة، وكان حديثه مرتبا كأنه أعد نفسه لهذا اليوم.

سألته عما بعد سفره لكنه انطلق يحكي ما قبل ذلك بكثير منذ طفولته بالتحديد منذ وفاة والدته و انفصالي عنه جزئيا.

يا للمفاجأة، لقد انتظر مني ابني أن أسأله عن حياته كل هذه السنوات ولم أفعل، أي أحمق كنت و أنا ألقنه كل ما أرى أنه سيفيده، ولم أساله مرة واحدة عن ما يفكر فيه.

أغلقت بابي في وجه الكل حتى ابني، وعاملتهم كعابري سبيل في حين أن هدفي كان أن يعاملوني كعابر سبيل، بدأت أدرك الآن كم كان العالم مقلوبا بالفعل يا عزيزي.

أردت أن أعبر المسافة من موت زوجتي إلى موتي كطيف ينتظر موعد صعوده إلى السماء.

نظرت إليه متأملا هذه المرة، أنا فعلا أريد أن أسمعه.

حكى لي ابني عن جده وجدته كيف كانوا يعاملونه، وكيف اكتشف أنهم ربوه بعكس والدته تماما، كانوا حازمين جدا معه؛ فقد كانوا يحسون بمسؤولية غير مباشرة عن وفاة والدته.

فقد كانت الحادثة التي توفت فيها أمه وهي تقود دراجتها النارية بسرعة جنونية كما كانت تحب أن تفعل دائما، لم تكن تقود هكذا عندما تحس بضيق أو عندما تحس بفرح، كانت تقود هكذا دائما لأن القيادة بهذه الطريقة تجعلها تحس بفرح أيا كانت حالتها قبل ذلك.

كانت أكثر شخصية منطلقة شهدتها هذه الأرض، لكن هذا لم يكن يكفيها، كانت تحب أن ترفع قدميها دائما وهي تقود الدراجة البخارية، كانت تحس أنها تطير، ولكن على مسافة ثابتة من الأرض وكان ذلك يضايقها.

لو كان هناك إنسان يصلح ليركب له جناحين لكانت بالتأكيد ستكون هي.

كنت أحمد الله كثيرا على نعمة عباس بن فرناس، فلو لم يجرب الطيران بجناحين وفشل لكانت هي فعلتها.

تذكرت ذلك اليوم على ممر ستيلفيو، تذكرت نظرتها لي بعد أن صعدنا إلى الجبل، أحسست بخيبة الأمل في عينيها بعد أن أنهينا الجولة، فما كنت أراه أنا على أنه كبت للخوف وحفظ لهيبتي رأته هي خوفا أن أكون على طبيعتي معها.

نعم، أرادت أن تراني خائفا.

ساعتها ندمت كثيرا، لأن بوحي بالخوف كان سيقربنا أكثر، كان سيذيب حواجز عنجهيه الرجال التي يقيمونها بينهم وبين النساء.

ففي البداية تعجب المرأة بقوة الرجل وشجاعته، لكن بعد أن يتحابا تتوقع منه أن يسقط كل مظاهر القوة.

إن المرأة التي تحبك تبحث عن خوفك لتحتضنه، تريد أن تكون ملاذك الآمن كما تعتبرك ملاذها.

لكن الرجل الذي يبقى منيعا ويخفي مخاوفه يبني سورا، تفهمه المرأة القوية على أنه إحساس منه بأنها كائن أدنى منه، لا يصح أن يريها مخاوفه لأنه كائن أرقى، كائن أقوى.

لم أندم في حياتي على شيء مثل ذلك اليوم، تساءلت كثيرا ماذا كان سيحدث لو صرخت، لو رجوتها أن تتوقف لأني أخاف، لو احتضنتها وكأني أسلم سلامتي وأمني لها بدلا من التشبث بها وأن أبقي مسافة بيننا خوفا من أن تسمع دقات قلبي المتسارعة.

عزائي الوحيد أن حبها لي لم يتأثر، لم تتركني بعد ذلك أصرح بخوفي في أي وقت، كانت تحسه وتتصرف على أساسه دون أن تحاول أن تجعلني أفصح عنه، كانت إذا أحست بخوفي تضمني إلى صدرها وتحتضنني كطفل صغير، ولم تبال بخوفي من إظهار مشاعري.

لا أدري كيف صدمتني الفكرة، لكني كنت أتصرف معها كرجل دائما لا كمخلوق مساوٍ، وكنت أتصرف مع ابني كأب دائما.

احتفظت لنفسي دائما بموقع ملقي النصائح، الحكيم، الذي يعرف كل شيء، لم أسمع وجهة نظره أبدا، لم أتخيل أن المو اقف التي تعرض لها قد خلقت لديه حكمة ربما أستفيد منها كثيرا.

لذلك، ولأول مرة في حياتي تخليت عن مو اقعي الموروثة، عن مكانة الأب الحكيم لأصبح صديقا ورفيق درب لابني، سألته أن يكمل وكنت أصغي بكل ما أوتيت من عقل.

أخبرني ابني بعد ذلك أنهم منعوه تقريبا من فعل كل شيء وأي شيء، فلم يكن يستمتع إلا معي، لم أكن أدرك ذلك فكل حكايات زوجتي عنهم كانت غير ذلك، بل إني في أحيان كثيرة كنت أبالغ في تدليله خوفا من أن يكونوا هم يدللوه أكثر، لكني لم أشأ أن أعرف عنه شيئا قبل ذلك، ولم أشأ أن أسال حتى، واكتفى هو كما أخبرني بحبهم وتفهم ما يفعلونه، إنه في النهاية كان حزينا على فقدان أمه مثلهم تماما.

إن كون الناس و اقعين تحت تأثير نفس المحنة يجعلهم أحيانا يلتمسون العذر لبعضهم أو على الأقل يتفهمون.

أخبرني عن حبه الأول، وكيف أني وقفت بجانبه عندما انفطر قلبه.

لم أواسيه بل انتقلت لما قبل الكارثة على حد تعبيره، وكانت هذه طريقتي دائما في حل المشاكل المعقدة بردها إلى أصولها، فمن البداية يمكنك تتبع الخيوط أفضل، وهذا يجعل فك تشابكاتها أسهل كثيرا.

سألته هل أحبها حقا.

أخبرني أنها كانت فتاته المثالية، فقلت له لو كانت فتاتك المثالية لكنتما مع بعضكما الآن.

قلت له وقتها أن بحثك عن الفتاة المثالية أمر مهم، والأهم أن تدخر نفسك لها، لأنك إذا أحببت الكثيرين لن تكون مثاليا، حينها بأي حق تبحث عن فتاتك المثالية، إن لها حقا عليك أن تجد فيك فتاها المثالي كما تحلم أنت بها كفتاتك المثالية.

وأخبرته أني أخاف أن يتعرف على غريزة الصياد، وتنجح هذه الغريزة في جعله ينسى فتاته المثالية.

فأول ضحايا غريزة الصياد عند الرجل يكون الرجل نفسه، لأن الفتى الذي يقع فريسة لغريزة الصيد لا يتزوج أبدا فتاته المثالية، لأنه لن يجد عذرا ليخونها.

أخبرني ابني بكل ذلك، والحقيقة أنني كنت لا أتذكر معظمه.

لقد حصرت كل شيء لنفسي فقط، حتى ذاكرتي لم يكن فيها مكان يتسع للحظة مثل هذه مع ابني.

اعتصر قلبي الألم مرة أخرى.

كنت أعلم أن عليَّ أن أواجه هذا الألم الذي اكتشفته، الألم الذي جعلني أغلق حياتي وأضع بيدي خاتما لنهايتها، ألم فراق زوجتي.

الآن بدأت أندم أكثر على إخفائي الخوف من الركوب معها.

ربما لو لم أفعل ذلك لحاولت أن تهدئني وتجذبني إلى هو ايتها، ربما كنت سأشاركها، ربما كنت سأكون خلفها يوم ماتت، ربما أنقذتها بنفسي، ربما دفعها تواجدي خلفها إلى التعقل فأكون أنقذتها بصورة غير مباشرة، ربما كنت رحلت معها، وهذا بالتأكيد أفضل من البقاء بغيرها.

الآن ندمت أكثر على تلك الليالي التي سهرتها أنظر إلى وجهها في انعكاس الضوء الخافت المتسلل إلى غرفتنا، لماذا لم أفعل ذلك وهي تراني.

تبا لعنجهية الرجال!

ربما يأتي يوم أصارحها فيه بكل ما أخفيته خوفا من فضح ضعفي.

سرحت بخيالي قليلا لأتذكرها.

وكان ذلك سهلا لأنها كانت بالفعل مختلفة عن أي امرأة، لم تكن امرأة شرقية عادية، لقد أحببنا بعضنا فترة قبل أن أطلب منها الزواج، لم توافق على الفور، خاب أملي في رد فعلها.

إلا أنها وضحت لي أنها ليست مترددة لأنها لا تحبني، بل لأنها تحبني.

إنها تحبني لدرجة الخوف من أن يؤثر الزواج على هذا الحب.

لقد كانت فعلا مختلفة، لم يكن الحب بالنسبة لها ككل الشرقيات مجرد طريق للزواج.

كانت تحبني أكثر من أن تجعل شيئا يفسد هذا الحب، حتى لو كان ما تتمناه كل امرأة.

لم تغرقني بطلباتها، بل تصرفت في حدود قدراتي تماما، و أبدعت في ذلك.

لم تفعل مثل كل الشرقيات اللائي تبالغن في إظهار غلوهن.

فأولئك لا يعرفن أن غلوهن هذا قد جعلهن يعتبرن أنفسهن سلعة.

فكل ما يقاس بالمال هو سلعة، غالية كانت أو رخيصة لا يهم.

يجب أن تباع ابنتنا بنفس المبلغ الذي بيعت به ابنة خالتها، أي سوق نخاسة هذا الذي أصبح يدار في معظم صالونات بيوتنا.

كانت زوجتي مختلفة أيضا في شيء آخر، في تقبلها لي.

أخبرني صديق لي أنه إذا أراد أن يشارك زوجته في همومه يفكر في كل لفظ يقوله وينتهي الأمر في معظم الأحيان بأن يقلع عن الفكرة من الأساس، لأنه ترن دائما في عقله تلك الكلمة التي يقولونها لمن تعتقله الشرطة في أمريكا بعد أن تتلى عليه حقوقه، «لك الحق في التزام الصمت لأن كل ما تقوله سيستخدم ضدك لاحقا»، لذلك كان يفضل التزام الصمت دائما.

أما زوجتي فكانت تتقبلني ولم أر في عينها يوما نظرة انتقاد، وكانت تستمع لمشاكلي وهمومي ثم تلقيها في بئر بلا قرار، فلم أخف يوما من البوح لها.

أخبرني عن سعادته وفخره وهو يحكي دائما لزملائه كيف رعيت موهبته فور أن اكتشفتها، و أنه حكى لهم قصة الأربعة وأربعين كثيرا، وكنت فخورا بفخر ابني بي.

إن العلاقة بين الآباء والأبناء هي العلاقة الوحيدة على الأرض التي يكون فيها الفعل في نفس اتجاه رد الفعل.

أخبرني أنه كان فخورا بأنه لم يحتج لأن يكافح معي ليثبت موهبته مثل معظم زملائه الذين أتوا من خارج فرنسا أو من خارج العالم المتقدم عموما، فالمتحضرون يقدرون الفنون.

أما أولئك الذين نشأوا في مجتمعات مقولبة فكافحوا كثيرا أمام أهلهم لكي يعترفوا بموهبتهم.

كانت تلك المجتمعات المقولبة تميل إلى حصر الطفل في قالب أكل العيش فقط، أن يتجاهل كل شيء لا يجني من ورائه ربحا ثابتا أكيدا.

لكن لحسن الحظ أن مثل هؤلاء المكافحين كانوا دائما أحرص على موهبتهم من أن يتركوا حفنة من التقليديين يخنقوها.

طلبت منه أن يحرك كرسيه قليلا إلى طرف السرير حتى أستطيع أن أراه جيدا و أنا نصف نائم، أخبرني أن بعده عن والدته لم يكن مؤثرا فقد تركت بداخله بطريقة ما جزءًا منها وكان إحساسه هذا يمنعه من الألم لفراقها.

كانت في غيابها ترعاني، قالها لي و ابتسم.

ولأول مرة أرى ملامحها فيه، فهو يشبهني أكثر.

لكنه الآن كان يشبهها أكثر.

أتى طعام الغداء وساعدني في تناوله، لم أبد أي اعتراض لذلك.

فأنا مريض، و أنا إنسان.

ما العيب في ذلك.

بعد الغداء أخبرني أنه اختار مذهبا جديدا في الرسم رغم صعوبته.

لقد قرأ في مذكراتي عبارة تقول أن كل إنسان يختار العذاب الذي يريحه (من مسلسل أحلام الفتى الطائر).

وقد تصور في البداية أن هذا العذاب هو المذهب الجديد في الرسم.

إلا أنه بعد فترة بدأ يدخل عليه تعديلات، اكتشف أن عذابه هو التجديد، ذلك العذاب الذي لازم العباقرة في كل العصور ولولاه لتوقفت مسيرة التاريخ.

أغمضت عيني قليلا و أنا أفكر في جملة العذاب المريح.

إنها كلمة عميقة جدا.

في حالتي كان العذاب الذي يريحني هو الخوف من مواجهة الحقيقة.

حقيقة أنها رحلت وتركتني.

وحقيقة أني علي أن أعود إلى الحياة مرة أخرى بدونها.

كنت مدمنا لها، ولكنني على عكس مدمن المخدرات الذي يتوقف نموه العقلي والعاطفي طوال فترة تعاطيه، توقف نموي العاطفي والعقلي بل وحياتي كلها مع رحيلها.

حلمت اليوم أني أقفز من طائرة و أني أحببت ذلك جدا بل أني تركت نفسي للهواء طويلا قبل أن أفتح مظلتي.

كانت رسالة عقلي الباطن هذه المرة واضحة.

لقد تحررت من الألم عندما تخلصت من إحساسي بحتمية حدوثه.

...

استيقظت مبكرا جدا اليوم.

كان إحساس التحليق في الهواء الذي أحسسته في الحلم ما زال يراودني، ارتديت المئزر الأزرق استعدادا للذهاب إلى غرفة العمليات، أخبروني أني مستعد الآن وسيأتون بعد قليل لينقلونني.

في فترة الانتظار لم أكن أفكر إلا في شيء واحد: تلك الأيام التي ضيعتها في أوهام الصراع، ذلك الصراع الذي خضته في أيامي الأخيرة... صراع بيني وبين أجزاء مني... بيني وبين عقلي الباطن... وبيني وبين مرسل الرسائل الذي اتضح في النهاية أنه أنا في فترة المراهقة.

نعم، هذه هي الحقيقة، فلقد كان ابني مجرد وسيط بينى وبين من كنته.

لقد قضيت أيامي الأخيرة كما قضيت آخر سنين عمري في صراع عبثي، قضيت عمري من لحظة وفاة زوجتي أهرب من ألم خدعني بحتمية حدوثه.

هالتني فكرة أني أضعت أيامي أهرب من ألم لم يكن مقدرا لي أن أقاسيه.

الآن تمنيت أن يتولى ذلك الفتى المراهق الساذج الذي يحلم بحياة فاضلة في مدينة فاضلة آخر لحظاتي.

تمنيت أن أرى الدنيا في آخر لقطاتي كما رأيتها في بداية معترك الحياة.

نقلوني بسرير متحرك إلى غرفة العمليات، وطوال الطريق كنت أمسك بيد ابني كما كان هو يمسك بإصبعي عندما ولد.

باب فتح، ثم أغلق

واختفى ابني.

لم أنظر إلى أسفل أبدا خشية أن تظن إحدى الممرضات أني أنظر إليها.

وألزمت يدي بجانبي حتى لا ألمس أحدا.

لم أعد أرى سوى سقف بدا لا نهائيا...

ووحدات إضاءه متعاقبة...

وأصبحت لا أرى سوى رؤوس منحنية تكلمني...

طلبت من طبيب التخدير ألا أخرج من غرفة العمليات إلا بعد أن أكون قد أفقت إفاقة كاملة...

أن أهذي هنا،

لا أن أفعل أمام الناس...

فبعد كل ما مررت به لست مطمئنا لعقلي الباطن وألاعيبه...

صحيح أنه أعطاني رسالة واضحة بالتحليق وبأنني تحررت، لكني لست مطمئنا له.

ولست مطمئنا أن ذلك الفتى المراهق الساذج سيستطيع أن يتغلب على عقلي الباطن.

لم يبد طبيب التخدير استغرابا من طلبي.

ابتسم فقط وهو يقول: مفهوم، مفهوم.

واضح أن كثيرين غيري طلبوا منه ذلك.

انتظرت أن أرى لقطات ولكني لم أر أي شيء.

أو بالأحرى لم أتذكر أي شيء.

كهف آخر

أحسست بها أكثر حرارة مما أتذكر.

تلمس خدي وتنساب مخلفة وراءها أثرا حارقا كحمم بركان.

لم أصدق نفسي في البداية.

لقد انهمرت دموعي فجأة.

و تركتها...

تركتها...

لم أحاول أن أتدخل، فقط تركتها.

انقشع الضباب الأسود فجأة.

ضباب صنعته دموعي الحبيسة.

تذكرت المشهد والسيارة تنزل من الجبل، والشرطة والأهالي مجتمعين على جانب الطريق.

رأيت دراجة زوجتي أولا، ومن بعيد.

شهقت كمن يريد خروج روحه.

أسرع راستا ثم توقف فجأة، نزعت حزام الأمان مسبقا، فتحت الباب وركضت إليها.

كانت مسجاة على ظهرها مشرقة كعادتها، الدم الذي نزف منها شكل لوحة زادتها جمالا، عيناها ما زالت تلمع، نظرت فيهما لأرى نفسي رغم لمعان الإطار منطفئا، أغمضت عيناها حتى لا أرى نفسي هكذا، ولم أر نفسي منذ ذلك اليوم، لا مرايا كعينيها.

لا شيء يكشف روحي...

استمتعت ببكائي لساعات لم يقاطعني أحد...

تذكرت ابني وهو يقول إنها لم تكن لترضى بحزنه عليها...

هي أيضا لن ترضى بحزني عليها...

إنه ألم لم يرد صاحبه أن يواجهه، علي أن أمتثل، وبدموعي المنهمرة على أن أغتسل من ألمي، ومن هم مواجة الألم.

بكيت كمن يبكي فراق روحه، بكيت كأني أنا من مت...

بكيت...

أخيرا بكيت...

الرسالة الأخيرة

عزيزي أنت.

هذا خطاب لن تقرأه أبدا.

فلم أستطع كتابته على ورق.

فالآن أنت الذي تتحكم في هذا الجسد وليس أنا.

لقد كنا مخلصين يا عزيزي لهذا الجســـد حتى أننا نسينا أنفسنا.

نسينا أن نتساءل عن مصيرنا عندما يبدأ هذا الجسد مرحلة أخرى.

أنا لا أقصد أنا وأنت هذه المرة بل أقصد أنا وزملائي هنا، فما كان بيني وبينك من رابط قد انتهى وقتيا، لكني أقصد بصيغة الجمع أنا وعقولك القديمة التي اجتمعت على مائدة نديرمنها عقلك الباطن.

نعم يا عزيزي...

لقد أصبحت أنا أيضا جزءًا من عقلك الباطن.

ومعي هنا كل عقولك السابقة.

وقد ذهلت من الحقيقة عندما قابلتهم، فقد كنت أظن عقلي الباطن خبيثا لكني على يقين الآن من براءته، فعقلك يفرض علينا رقابة صارمة لا إراديه تمنعنا من إبداء رأينا، وهو على حق، فنحن لم نكن متأكدين عندما كنا نتحكم في هذا الجسد، ما الذي يضمن أننا متأكدون الآن، إلا أننا نتحايل على هذه الرقابة المشددة، ونختار رسائل نتفق عليها ونرسلها لك خلسة في أحلامك أو في زلات لسانك.

وقد تجد لنا العذر الآن في أننا نرسل لمحات فقط كي لا نتحمل تبعة قرار تتخذه بناء على رأينا، أو نشاركك في صنع القرار وهذا سيكون ظلما لك، فكل واحد منا قد أخذ فرصته كاملة.

لقد كانت المرأة الغامضة مطموسة الملامح في الحلم ليوحوا إليك أنه لم تكن هناك امرأة من الأساس، فلقد تعرف عقلك المرهق على المقتطفات التي أخذت من المذكرات.

لقد سألتهم أيضا عن نظرتك لمؤخرة الممرضة، وأكدوا لي أنهم ليسوا مسئولين عنها، فبداخلنا يا عزيزي غرائز أخرى لا يتحكم بها العقل.

وبمناسبه الممرضات.

هل تذكر جلسة الممرضات التي جعلتني أحس بالضيق، وجلسات النميمة التي كنت تبتعد عنها، الآن ليس لدي أي شيء سواها أفعله.

فأنا أجتمع الآن هنا مع غرباء كانوا أنا قبلي.

ونحن مجتمعون في جزء لا نعرفه من عقلك.

جزء أسود بابه مغلق علينا.

لكنا لن نبخل عليك بما يمكننا.

أحسب أنه سيمر وقت قبل أن أشاركهم في إرسال الرسائل.

فأنا عقلك الباطن الحديث، لهذا فأنت تتذكرني جيدا.

لقد تحدثت معهم كثيرا، و أقول هذا و أنا أعلم أن الوقت الذي مر عليك قصير، لكنه هنا كان كافيا، فنحن لم نعد نخضع لحسابات الوقت الأرضية.

من حديثي معهم وجدت أن كلهم أتوا هنا بعد لحظة التفات.

لم يترك أي منهم أثرا ماديا يذكر سواي؛ نعم، أنا وعقلك أيام المراهقة.

هو ترك مذكراته، و أنا تركت مذكراتي.

وهم معذورون فلحظة الالتفات تأتي فجأة.

أما عقلك المرهق فكانت لحظة التفاتته هي المستقبل أمامه.

و أنا كنت التفاته بأمر الطبيب.

لقد تركت لك المذكرات التي كتبتها ومذكرات المراهقة التي أعادها ابننا إلينا علها تهديك في طريقك أنت ومن سيأتي بعدك.

ختاما...

أتمنى أن تكون ربانا جيدة لهذا الجسد.

وقد حجزت لك مقعدا بجانبي على مائدة العقول.

عسى أن تنجح رؤيتك في فك أسر دموعي.

أراك يا عزيزي بعد التفاتة!

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com